أطلس القلب

بسم الله الرحمن الرحيم

# أطلس القلب

# Kalp Atlası

شمس الدين يابار

Şemsettin Yapar

دَارُ المَكْتَبِيّ

# الطبعة الأولى

**2017 - 1438**


# أطلس القلب

## Kalp Atlası


شمس الدين يابار

Şemsettin Yapar



ترجمة: مرغريت خلوف

مراجعة وتحرير مركز التعريب والبرمجة

بإشراف الدكتور غياث المكتبي – شيم حقوق

قامت دار المكتبي – براعم المكتبي بترجمة هذا الكتاب الصادر

عن دار: ALTIN BURC

تمت ترجمة هذا الكتاب

بمساعدة صندوق معرض منحة الشارقة الدولي للكتاب للترجمة



جميع الحقوق محفوظة



دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة

دمشق هاتف: 00963112248433، فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309

Email:almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

# تعريف بالمؤلف
# شَمس الدين يابار

وُلد في (24) أغسطس عام (1971م) في مدينة مرسين في حي تشامليلا، وأكمل دراسته الابتدائية هناك، ثم انتقل إلى أنطاليا وأكمل دراسته الثانوية فيها، بدأ الكتابة وهو في المدرسة الثانوية.

بعد ذلك انتقل إلى أزمير لدراسة الأدب التركي في جامعة (9) أيلول، وخلال دراسته الجامعية كرَّسَ وقته للكتابة، وبعد تخرُّجه قام بالتدريس والإدارة في عدة مدارس وفي عدة مدن: في أيدن، أرزروم، إسطنبول، قونيا.

قام بكتابة عدة مقالات في إحدى الصحف عن تصحيح أخطاء اللغة ولمدة سنة كاملة، ولكن باسمٍ مستعار: «إردمسوزيري»، وفي قسم تحضير الامتحانات

نشر أشياء كثيرة كان من آخرها «الملحمة» عام (2005م). يقوم الآن شمس الدين بكتابة القصص والروايات، وهو متزوج وأب لأربعة أطفال.

الناشر

غونولأتولياسي

# حجرُ الصَّبر

بعد ليلةٍ هادئةٍ دافئة، يومٌ صعبٌ آخر يولد في جوِّ شهرِ آبَ الحارِّ المزعج. على الشوارع والأرصفة، وعلى المنازل والأشجار؛ تشرق الشمس من جديد مُظْهِرَةً السياسة الظالمة التي تجعل اليوم يمضي كحملٍ ثقيل على الكتف، شهورُ الصيف هكذا دائماً، لا تأتي سَلِسَةً كالشتاء؛ بل تمرُّ رطبةً، ضيقةً على النَّفْس، مُضجِرَةً كحجرِ الطاحون الذي يدور فوق ظهر الإنسان طوال اليوم ولا يريد التوقف، وكأن الشمس تفتح عين الإنسان ليعودَ إلى وعيه بعدَ يومٍ متعب.

بعد استراحة الليل الساكنة، ومع هدوء الصباح الرزين، ومع السحب البيضاء في السماء، نهارٌ صيفيٌّ جديد، يولد مع أشعة الشمس التي تضرب ظهرَ الإنسانِ كاللَّهب.

الساعة الثامنة تقريباً، لا أحدَ مستيقظٌ في البيت

سواي، أمي وأبي وأخي ناموا متأخرين. خلال نومي كانوا يسيِّجون الشُّرْفَةَ بالسِّياج، وبعد أن انتهَوا أخرجوا التلفاز إلى الشُّرْفَةِ وشاهدوا فيلماً.

دُقَّ الباب؛ مَن يا تُرى سيأتي في هذا الوقتِ المبكر؟

لقد كان ساعي البريد، ترك بضع رسائل في الصندوق وذهب.

هل وصَلَتْ يا تُرى؟ نعم.. نعم.

أمسكتُ بالظرف، كنت مضطرباً جداً خوفاً من أن أمزِّق الورقة بداخله. وعلى الفور فتحتُ الظَّرف، وسرعان ما وصلتُ إلى ورقة النتيجة، كانت تلك اللحظة في عقلي كسيناريو فيلم يُسجَّل، وكأنَّ الأحداث تمشي ببطءٍ شديد، كان يمكن أنْ يكون بداخلها خبرٌ يحزنني، نصفُ الحروفِ كانت غيرَ مفهومةٍ؛ إلا أنَّ الجملة الأخيرة فيها كانت: «لقد ربحتم»!

كانت دائماً آخر الكلمات في الأسئلة التي أحلُّها هي التي تلفت انتباهي، كان الخبر جميلاً مؤثراً، وكنت أقرؤه وأعيد القراءة وأنظر.

كان يقول بالضبط: «لقد نجحتم»، وبجانب كلمة «نجحتم» كُتِبَ: جامعة سلجوق ـ كلية الآداب ـ قسم الأدب التركي.

من فرحتي صرتُ أقفزُ كالنَّابض من جانبٍ إلى آخر، فاستيقظت أمي على الضوضاء التي كنت أسبِّبها، وعندما سمعَتْ هذا الخبرَ الجميل ارتسمت الابتسامة على وجهها، وطار النوم من عينيها.

وضعتُ ورقةَ النتيجة فوق الطاولة وبجانبها شهادتي المزيَّنةَ من أطرافها بنقشٍ على شكلِ حلقاتٍ أحاطت بالكتابة كالإطار، كالنقوش التي تكون على الستارة أو حتى في غطاء الرأس، كالسِّلْسِلةِ تدخل من جهةٍ وتخرجُ من الأخرى. إلى أنْ جاء وقت الفطور وأنا مستغرقٌ في النَّظرِ إليها وفي أحلامي.

سأذهب إلى قونيا، سأصبح شخصاً مهماً أخيراً، أهمَّ شخصٍ في الحي الذي أسكنه، شيءٌ لا يمكن تصديقه!

كيف ستكون ردَّةُ فِعْلِ أبي على الخبر يا تُرى؟ أبي لا يُظْهِرُ فرحَهُ بهذه السهولة.

في النهاية جلسنا جميعاً على مائدة الفطور، كان الحديثُ كلُّه عنِّي وعن هذا الخبر الرائع.

قال أبي: القطَّة أصبحتْ قطَّة عندما أمسكت فأراً. لِنَرَ كيف ستكون آخرتُك؟! حتى لو أنهيتَ دراستك وأحضرتَ لي شهادتكَ لنْ أصدِّق أنَّك يمكن أنْ تكونَ في يومٍ من الأيام مدرِّساً.. لا خيرَ منك.

هذه الجمل في لغةِ أبي تعني: «أحسنتَ يا ولدي.. لقد سررْتُ كثيراً لسماع هذا الخبر.. أتمنَّى أنْ تمرَّ الأيامُ بسرعةِ البرق وتأخذَ شهادتك لأراك ناجحاً في الحياة».

أمَّا أخي فلمْ يصدِّق الخبرَ أوَّلَ سماعِهِ، وعندما عرفَ بحقيقته قال لي باستهزاء:

ـ إذا أصبحتَ معلماً فسأصبح أنا رئيسَ الجمهورية! لن يثقَ فيك أحدٌ ويسلِّمَكَ أطفالَهُ لتدرِّسهم، وهلْ يصبحُ الذئبُ راعياً يوماً ما!

بعد انتهاء امتحاني الشفهي المنزلي، وبعد أنْ تخطَّينا موضوعَ قَبولي، وعند انتقالنا إلى موضوع إقامتي تغيَّرت نبرةُ صوتِ أبي، وظهرتْ خطوطُ وجهِهِ من شدَّةِ توترِهِ،

وارتسمت على وجهه غيومٌ سوداء ضاعت داخل عيونه الشَّاردة؛ ثم قال:

ـ ماذا تعني: «سأقيم في منزل..؟!» ستسجِّل اسمك في سكن الطلاب؟

تجمَّدْتُ في مكاني والغُصَّةُ في حلقي، لم أعدْ أستطيع التنفس أو البلع، أشعرُ وكأنَّه سيغمى علي، أحاول أنا أقاوم لكن دون جدوى.

ـ أنا لا أتركُ ابني يسكن في مكانٍ كهذا! قال أبي.

وكأنه لم يكن صوتي؛ شخصٌ آخرُ اختبأ بداخلي، هو من يتحدث ليس أنا، يخرجُ صوتي مبحوحاً خافتاً:

ـ أبي هل مكانهم سيء لهذا الحدِّ؟

ألا ترى وضعَ إخوة أحمد؛ قد نجد أناساً نظيفةً داخلَ المستنقع، إلى البارحة كان يعرف قيمة نفسه، ويقوم بالكثير من أعمال الخير، وإذا كان سيحصل شيءٌ جيدٌ في هذا البلد فهو من سيفعله، فهل تذكر ماذا كان يقول الناس عنه؟! يقولون: طريقُهُ سيء؛ وماذا حصل الآن؟! هذه أصل الحكاية.

كان يدور أبي أمام عينيَّ ككوكبين ضخمين، رأسي يدور مع دورانه.

ـ كما تأتي إلى هذه الدنيا ستتركها.. وهل تظن أنك من سيغير العالم!

وكأنَّ الغُصَّةَ التي كانت في حلقي قد تمركزت الآن، إلى الأعلى أم إلى الأسفل لا أعلم، حتى لم أستطع أنْ أجاوبه.

بقاءُ إخوةِ أحمدَ في بيوتٍ نظيفةٍ ولوحدهم خلال فترةِ دراستهم كان برأيي مثالياً، ولكنَّ أبي لم يجدْه كذلك.

كان أبي أكبرَ عائقٍ لي حينها، كان يستمر في قوله: «وهل أنت من سيغير العالم؟!». دون أن يقول شيئاً سوى ذلك.

ذهبتُ إلى غرفتي وألقيتُ بنفسي على سريري، بكيت كما في الأفلام، أخذت أكرر بداخلي مع كل نبضةٍ في قلبي:

«الناس لا يتغيَّرون بسرعة، يجب عليك الصبر.. الناس لا يتغيَّرون بسرعة، يجب عليك الصبر.. الناس لا يتغيَّرون بسرعة، يجب عليك الصبر».

بعد ذاك اليوم، لم يفتح أبي معي الموضوع مجدداً، إلى أن ذهبت إلى قونيا للتسجيل في الجامعة، كان الوضع بيننا حامضاً، وأصبحت أفكر أيضاً أنَّه يجب عليَّ تقبُّلُ فكرةِ العيش مع أصدقاء في بيتٍ واحد.

في الحقيقة لم أُرِدْ جرْحَ مشاعر أبي، لأنَّ الوضع بيننا كان سيئاً، كان يوجد بيننا حريق، لكنَّ المصابين ليسوا مدركين مدى إصابتهم، كانوا يقومون بمساعدة المصابين، أنا إنسانٌ أيضاً وبالطبع سأساعد بإخماد الحريق وسأحمل الماء، سأعلِّم الإيمان لمن لا يعرفه، وسأشرح لهم الحقائق.

تصالحت مع والدي. قال لي أحمد:

ـ عند وصولك إلى أي مكانٍ جديد أوَّلُ ما يجب عليك زيارته هم الحراس. لقد قالها لي من قبل معلمي، والآن أقولها كنصيحةٍ منِّي.

مضى يومٌ كامل، استغرقت رحلتي بالباص إلى قونيا من سبع إلى ثماني ساعات، ولحظة وصولي وضعتُ أغراضي عند الأمانات وذهبت إلى قبر مولانا.

مثل الجميع دخلت إلى المتحف مرتدياً حذاءً خاصاً

أزرقَ اللون، لم يكن هذا الحذاء مجردَ نايلون، كان وكأنَّه قد جاء من حكاية قديمة مرت عليها آلاف السنين، وكأنَّ هذا الحذاء قد أخذني إلى عالمٍ آخر وتركني فيه، كان الجو مؤثراً وذا معنىً عميق.

الأجواء ذوَّبتني بداخلها كقطعة سكَّرٍ داخلَ شايٍ ساخنٍ، نفتني من هنا وأخذتني معها، دخل صوت الناي إلى أذني، وتسلَّل إلى قلبي.

كانت تُعرَضُ هناك أعمالٌ رائعةٌ من عالمٍ مختلفٍ بعيد وتقاليد مختلفة، الْتفتُّ إلى جانبي الأيسر، فجاء نظري على لوحةٍ شديدة الجمال غريبةِ الوصف معلقةٍ من الأعلى إلى الأسفل، كانت مصنوعةً من حجر المرمر، ومن المكان الذي عُلِّقت منه إلى الأسفل كان هناك حلقاتٌ بيضاءُ وسلاسلُ كبيرةٌ مربوطةٌ من الأسفل بدائرة، كلُّها كانت من حجر المرمر، وكأنَّها قماشٌ من خشب، كانت تحفةً من الجمال، استُخدِمَ فيها المرمرُ كالزبدة.

ورجلٌ مسنٌّ واقف عند السلالم يشرح للمارة عنها؛ سألته:

ـ ما هذه؟

ـ حجر الصبر.

ـ ماذا تقصد بحجر الصبر؟!

ـ كان الناس قديماً يدرِّبون أنفسَهم على هزم العجلة، وكانوا يجدون أنفسهم في هكذا أعمال، عندما يتأمَّل الإنسان شكل الحجر يصبح قادراً على إعطاءِ شكلٍ لروحه بالمقابل، يتعلم الصبر؛ مثلاً إذا نظرت إلى الأعلى ستجد أنَّ كل شيء قد صنع من المرمر الصافي؛ الحلقات، السلسلة، الإطار في الأسفل، وفي داخلها كرةٌ هي أيضاً قد صُنِعتْ من المرمر، ألا تراها؟

ذُهِلتُ أمام ما يشرحه..

كم يأخذ صنْعُ مثلِ هذه التحفة الفنية من الوقت يا تُرى؟

اجتمع حولي عددٌ من الأشخاص، كان الرجل يحكي عن تجربة فريدة، الآن أقف أمام شخصٍ يعرف الكثير عن تاريخ حضارة الإنسان.

الآن أصبحت أشعر بالفخر أكثر أمام عظمة أجدادنا المفكرين، أفتخر أنَّني طفلٌ من هذه الحضارة العظيمة.

رجل واحدٌ أمضى طيلة عمره ليصنع لوحةً كهذه! وربما الباقي الذي لم يكتمل من حجر الصبر أنهاه ابنه، أو حتى حفيده.

كانت العواصف تضطرب بداخلي عندما كان الرجل يشرح عن حجر الصبر، الْتفتُّ حولي، ما هذا الصبر كله! ما هذه الإرادة! كم هي بعيدةٌ هذه الحضارة عن سطحية الإنسان!

في تعلُّمِ روحِ أجدادنا، وعند إعطاء شكلٍ لأنفُسنا وجدتُ سياسةً أبهرتني، وعندما كنت أهمس بهذا لنفسي سمعتُ بداخلي صوتاً يقول:

«أنتَ أيضاً حجرٌ كحجرِ الصبر، اقطعْ نفسكَ القوية العنيدة، هذِّبها، اعتمدْ، صوِّتْ، اعملْ..».

من بعد هذا اليوم أصبحتُ مرمراً، وأنا أيضاً خبيرُ حجر، أعملُ على إعطاءِ شكلٍ لروحي أيضاً.

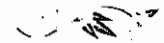

# خذه!..

أَلم تكُن لائقة؟ حسناً..

كيف يتوجَّبُ عليَّ أن أصيغ الجملة؟ كيف؟

الهواءُ شديدُ البرودة؛ الشفاه، الأنوف، الآذان.. كلُّها تحمرُّ وتزْرَق، لم تشرقِ الشمسُ هنا منذ قرابة أسبوع، بَرَدَتِ المياه الراكدةُ في الحفر، وانطوى الماء داخلَ نفسِهِ مثلَ أكتافِ الرجال المهاجرين.

غطَّت قطعُ الجليد الشقوقَ على أسْطحِ الزُّجاجِ المتكسرة، لقد ارتديت الكثير من الملابس ولكن الهواء البارد الذي كان يتسرب من تحت ملابسي، من فمي ومن بين الأزرار؛ كان كافياً لجعلي أرتجف من البرد، ولكيلا يدخل الهواء البارد إلى صدري مباشرةً ضَمَمْتُ كَفَّيَّ ونفختُ فيهما.

لقد كان اليومَ الأوَّلَ من عيد الأضحى، وكنت أتجوَّلُ

كالبقر المجنون، كنت أعلم أنَّ وظيفتي هي الإيماءُ بوجهي، وحمْلُ الأشياء القديمة المتَبرَّعِ بها؛ بعضُها من الريش، وأخرى علقت آثارُ الدَّم عليها، الصُّوفُ المُتَّسخ، المواد المستعملة الجيدة، ومعطفٌ مطويٌّ من الكشمير.

شعرت بالبرد لكنني كنت سعيداً، وبالرغم من أنَّ عملي كان صعباً فقد قمتُ به بكامل إرادتي؛ إنْ قالوا ليَ الآن: «اذهب إلى منزلك ونل قسطاً من الراحة» لكنت شعرت بالاستياء. ما جمعناه من طرودٍ سيُباع وسيغطِّي التَّكاليفَ الدِّراسية للطفلين الفقيرين في منزلنا.

في السنة الماضية استأجرنا منزلاً للطلاب المحتاجين بفضل ما جمعناه من الصوف، وعندما سمع الجميع كالبقَّال والعمَّال بما نقوم به قاموا بتقديم المساعدة.

لقد آمنَّا بأننا نستطيع إنجاحَ هذا العمل؛ ولِمَ لا؟ لِمَ لا؟! لقد صَدَرَ من ذوي القلوب الرحيمة أصحابِ الخير أنْ قالوا لنا:

ـ خذوا هذا الصوف.

ما أصعب هذا العمل! إنَّها المرة الأولى في حياتي

التي أطلب فيها من شخصٍ صدقةً؛ كان يجلس واضعاً يده على فمه يتحدَّثُ كشخصٍ لا يُعرَف صوته، خرجت كلماته مكتومةً وجمله وكأنَّها تأتي من قاعِ البئر.

ابتعدتُ كثيراً عن الحيِّ الذي كنَّا فيه، ربَّما كان هناك عشر أُضحيات تُذبح في أماكن مختلفة، ففي ذلك الوقت لم يكن ممنوعاً بعدُ ذبْحُ الأضحيات في الخارج.

اقتربتُ من الحقل، علَّقَ ذلك الرجل خروفَهُ الذي ذبحه من أقدامه على حديدةٍ ذاتِ ثلاثةِ أرجلٍ. ها هو هناك يقف صوبنا، لن يفهم ما أريد من دون أنْ أتحدَّثَ.

اقتربتُ منه.. كيف سأصيغ جملتي؟! بلعتُ لُعابِي

«هل يمكنكم التَّبرُّعُ بصوف أضحيتكم من أجل الطلاب الفقراء إذا لم تكونوا قد وعدتم بإعطائها لمكانٍ آخر؟».

لا لا، ليس كذلك، يجب أنْ أبدأَ بالسلام.

«السلام عليكم يا أخي؛ عملاً ميسَّراً!».

أو: «مرحباً ـ أقولها من القلب ـ مرحباً عمِّي! عملاً ميسَّراً! سلِمت يداك، ها أنت تذبح هذا الحيوان الكبير،

هنيئاً لك هذا العمل الجيِّد، إذاً أنت جزَّارٌ ماهر! كنت أسأل عن صوفه ـ أقصد الخروف ـ إذا لم تعطوا وعداً بإعطائه لجهةٍ أخرى؟.. أعني.. كنَّا نريده منكم من أجل تغطيةِ مصاريفِ الدراسة لبعض الطلاب المحتاجين.. أعني أن نطلب منكم إعطاءنا الصوف!».

كيف ستكون ردَّة فِعْلِهِ يا تُرى؟ ماذا لو كان العكس؟! ماذا لو نظر إليَّ باحتقارٍ ولم يتفوَّه بشيء؟! هل سأبدو بمظهر المغفل؟! هل سينقص ذلك من رجولتنا؟ اييييي! إنْ كانت ستنقص فلتنقصْ، في النهاية لا يوجد موتٌ في الموضوع!

في تلك الأثناء نظر الرجل إليَّ والسكين في يده، وسرعان ما اكتشف ملامح وجهي المرتبك، كان في عينيه ركودُ وغموضُ الرجالِ المنهمكين في عملهم.

انصرف بصري لحظةً إلى الصوفِ الأصفر المتَّسخِ المطويِّ على اليمين بوبره الكثيف، المرميِّ هكذا فوق الأشواك، ثمَّ نظرتُ مجدَّداً إلى الرجل.

هو أيضاً انصرف نظره تجاه الصوف، حاولتُ أن أستجمع ما سأقوله، وصوفُ الخروفِ هناك في مكانه.

وقعتْ عيناه مجدَّداً على عينيَّ، أحسستُ بتوهُّجٍ في عينيَّ، وبدأ بؤبؤهما ينظر بجدية، نظرتُ ثانيةً إلى الصوف الملقى على الجانب، كم يبدو جميلاً! استجمعت نفسي وذهبت إليه لإلقاء التحية، وكأنَّ كلمةَ (مرحباً) بقيت عالقةً في حنجرتي، وكأنَّ أقدامي ثُبِّتتْ في قعر بئرٍ عميق، لم يكنْ صوتي قويّاً بالقدْرِ الكافي ليصلَ للرجل، حقاً لقد ذُعِرتُ من سلامي.

في هذه المرة كشفتُ أيضاً تلاؤم الغموض الذي في وجهه، خطوطُ التَّجاعيدِ التي فوق شاربيه كانتْ ظاهرةً ملتويةً بشكلٍ واضح، حاجباه مقوسان أظهراه بمظهر الشخصِ المحبِّ للمساعدة ذي القلب الطيب، ماذا عن عينيه؟ أعطتني عيناه إشارةً كأنَّها تقول: «خذه؛ إنَّه لك!» لقد فوجئت، هل حقاً أرادَ قولَ ذلك؟!

نظرتُ بسعادةٍ غامرة، وبدأ قلبي يبتسم؛ نعم يبتسم. لقد هزَّ برأسه مشيراً بنعم.. نعم لقد قال: «خذه!».

أمسكتُ بالصُّوف بين ذراعيَّ، وقلت فَرِحاً:

ـ تقبَّل الله خيرك هذا.

قلت ذلك، ولكن لا أعرف إنْ كان سمعه أو لا.

انطلقتُ عائداً أطير من الفرح، الصوف الذي وضعته تحت ذراعيَّ لَفَفْتُهُ حولَ جسدي بشدَّة.

لقد كان بين جسدي ونفسي أنا آخر. كان يريد القفز كطائرٍ بَسَطَ جناحيه في الأجواء، ولكنَّ جسدي لم يسمحْ بذلك، كنت كالطائرة التي على وشك الإقلاعِ؛ نصفُهَا على الأرض، ونصفُهَا في السماء.

# اللَّوْحَةُ دَاخِلُ الإِطَارِ

ما أجمل العيد وما أحلاه! يمضي الوقت بسرعةٍ بين زيارات الأقارب وشرب شراب الورد، قطع الحلوى الدائرية التي تتوسطها الكريما البيضاء الناصعة، حلوى غزْلِ البنات المنسوجة برقة، الرياح الباردة التي تلامس أيدي الناس ووجوههم في الطرقات، حُبيبات الثلج البيضاء الصغيرة التي لم تعجبها أماكنها تنتقل من مكانٍ إلى آخر؛ بعضها انضمت إلى الجماعة لتشكيل الوحدة، وبعضها كانت تُسحق تحت الأحذية.

بالنسبة لي كانت المدافئ تَضرُّ بركبتي، مشاهدةُ المناظر من خلف النافذة كان يبدو ممتعاً للغاية، إضافةً إلى مراقبة الناس في الخارج.

تتيح زيارات العيدِ فرصةَ اللقاء مع الأقارب والأحبَّة، لم أرَ خالتي وابنَها منذ وقتٍ طويل، إنَّهم يقيمون في

أنقرة، بينما نعيش نحن في بورصة، والآن بعد أنْ أصبحتُ أرتادُ الجامعة أصبحنا منفصلِين عنهم تماماً.

خطَّطَتْ خالاتي للمجيءِ إلى إسطنبول دون إخبارنا، فكان قدومُهم مفاجأةً سعيدةً، لقد بقَوا في منزلِ أهلِ زوجِ أختي لعدَّةِ أيام، تحدَّثتُ مع ابنِ خالتي كثيراً، ضحكنا وبكينا، تحدَّثنا عن المواقف والمغامرات، تذكَّرْنَا كيف كنا نثير سخَطَ المعلمين ونغضبهم، كيف كنَّا نسكُبُ الحساء على رؤوس بعضِ أطفالِ الحيّ. تحدَّثنا وتحدَّثنا، وبعد أنْ كنَّا مسترسلين في الحديث توقفنا قليلاً وعمَّ الصمت، وبدأتُ أراقبُ المنظرَ في الخارج من النافذة، وفي وسط هذا الصمت سألني سؤالاً غريباً:

ـ من يوجد داخل الإطار؟! قالها ضاحكاً.

لم أفهم ماذا كان يعني، من أين خرج الإطار الآن؟ لم يكن له أيُّ صِلَةٍ بالموضوع الذي كنَّا نتحدَّثُ فيه!

ـ أيُّ إطار؟! قلت متفاجئاً.

ظننتُ بأنَّه يقصد ما أراه خارجَ إطارِ النافذة، فقد ظهر المشهد مثلَ كرتٍ بريديٍّ دبَّتْ فيه الحياة، لم أجدْ معنىً

لسؤاله هذا، ذهب تفكيري من أمر مهمٍّ لآخر، لكنِّي لم أجدْ تلميحاً يوضح مقصده.

ـ هل نسيت؟! لقد اشترينا إطارَينِ بنفس الشكل! كنَّا نضعهما بجانب السرير في كل مساء، نتأمَّلُهما عندما نخلد للنوم لنستيقظ ناظرين إليهما في كلِّ صباح.

الْتقَّتْ بعضُ خيوطِ الذِّكرياتِ في عقلي.. رجعتُ بالزمن إلى الماضي.. آه تذكرت؛ لقد كان ذلك منذ سنواتٍ طويلة.. كان هناك إطارُ صورةٍ كاللعبة قد وُضِعَ في العلية وقد غطَّاه الغبار.

ـ نعم! حسناً.. حسناً! لقد تذكَّرتُ الآن!

قبل سنوات.. بعد انتهاء العيد، كنا قد جمعنا مقداراً جيداً من المال من زيارات الأقارب، وقام أحد أقاربنا بإقناعنا بإنفاق هذا المال، فذهبنا إلى السوق وأنفقناه مرةً واحدةً على أشياء كثيرة! في ذاك اليوم كان من بين الأشياء التي اشتريناها إطاران صغيران من الخشب غامقِ اللون، دفعنا ثمنهما بابتهاجٍ لنضعَ فيهما صورَ مَنْ نحبُّهم؛ ربما كنا في الصف الأول أو الثاني الثانوي، في ذلك

الوقت كنا نعيش فوق السُّحُبِ بعيداً عن الحياة الواقعية، لم نكن نهتمُّ بأمرِ أحدٍ آخرَ سوى أصدقائنا، والدتنا ووالدنا عاقدي الحاجبين من القلق، النصائح من فم أساتذتنا والأكبر منَّا سناً.. كنا نهرب من الجميع غيرَ مكترثين.

اشترينا الإطارين من معرضٍ متنقِّلٍ، وفي الأيام التالية كنا نبحث عن صورٍ نستطيع وضعَها في الإطار. إنَّها الطفولة.. ولكنني نسيت كلَّ ذلك من زمنٍ طويل، كم أنا بعيدٌ الآن عن نفسي القديمة! مع حزني لعدم تذكُّرِي لذكرياتِ الطفولة ابتسمتُ محرجاً:

ـ لا أعلم، هو على الأغلب في مكان ما في المنزل.

عندما لاحظ تغيُّرَ عاداتي منذ زمنٍ طويلٍ نهضَ وذهب إلى الداخل بسرعة، وبعد قليل أتى وبيده إطارٌ خشبيٌّ بُنّيُّ اللونِ مستطيلُ الشكلِ، مضى على وجوده سنواتٌ طوالٌ.

لم يعرفْ ماذا يقول، كان يتحرك بحماسٍ كالطفل ليريني لعبتَهُ، وضعها في يدي، شعرتُ بالقلق، يا تُرى ماذا كان في إطاره؟ تأمَّلتُ داخلَ الإطار فإذا بصورةِ فتاةٍ

مرتديةً ملابسَ جميلةً، مبتسمةً ابتسامةً لطيفةً، تبدو عليها السعادة. هذا يعني أنَّ إطارَهُ كان لهذه الصورة.

من ناحيتي كانت الأمورُ مختلفةً جداً، أردتُ أنْ أخرجَ عن مسارِ الحديث، أنْ أغيِّرَ الموضوع..

ـ مَنْ هذه؟

ـ ديلارا.. صديقتي..

عندما قال «ديلارا» لمعتْ عيناه؛ قال بحماس:

ـ لقد اعترفنا بحبِّنَا الشهرَ الماضي!

كان سعيداً بتحدُّثِهِ عن هذا الموضوع، كلمةُ سعيد لا تكفي، كان فرحاً من ثمانِ زوايا!

حاولتُ تغيير مجرى الحديث لأنني علمتُ أنَّه في النهاية سيسألني عن الصورة التي في إطاري.

ـ يا لَه من اسمٍ جميل! ماذا يعني؟

ـ معناه! لا أعلم!

ما يُفهَمُ من إجابتِهِ أنَّه لم يخطرْ ببالِهِ أبداً: «لا أعلم، لم أفكر أبداً».

وهنا كانت الكرةُ في ملعبي، قلت:

ـ ألا يوجد قاموسٌ في البيت؟

ـ لا أظن ولكنْ دعْني أرى.

وجد لدى أخيه الصغير قاموساً صغيراً بسيطاً للمرحلة الابتدائية فأحضره، قرَّبْنَا رؤوسنا بين صفحاته الصغيرة التي كانت بحجم كف اليد، هذه الكلمة لم تكن مذكورةً في القاموس، يجب أنْ نجرِّبَ طُرُقاً أخرى.

ـ لنسأل عمَّنا الإنترنت.

ـ حسناً.

في الحال أدخلَ عنوانَ الموقع الالكتروني وضغط موافق، كتب في مربع البحث الذي ظهر في الصفحة: «ديلارا» وضغط «بحث»، ظهرت صفحة النتائج بسرعة، ولكنَّ ما بحثْنَا عنه لم يكن موجوداً، لم يكن هذا الاسم موجوداً في صفحة مؤسسة اللغة، ماذا نفعل الآن؟ جرَّبْنَا مواقعَ أخرى، وأخيراً توصَّلْنَا إلى نتيجةٍ لبحثنا في موقعِ: معجمُ كلماتٍ ومعانٍ.. زينةُ القلب، اسم ديلارا يعني زينةُ القلب.

ـ مممم... يا لَه من اسمٍ جميلٍ حقاً!

ـ انتظر سوف أمزح معها غداً بهذا الخصوص، إنَّها تعشق هذه الأمور، قال ضاحكاً.

في هذه الأثناء أتتْ عائلة الجيران لتهنئتهم بالعيد، كانت فرصةً جيدةً للتملُّص:

ـ اسمح لي.. زيارةُ العيد تكونُ قصيرة. تلعثمتُ وقلتُ كلاماً مشابهاً، ثم نهضت.

في طريقي للمنزل بخطواتي المتعبة: «يا إلهي!» ـ قلتُ لنفسي ـ «.. كم تباعدتِ المسافات بيننا، لكنني إلى الآن أخبِّئُ في ذاكرتي المراهقَين اللذين كانا يحلِّقان كطائرين، سيكون تغيير الذكريات في لحظةٍ صعباً، سأبقى أتذكَّرُ تلك الأيام لفترةٍ طويلةٍ وكأنَّني ما زلت أعيش فيها».

لديَّ الآن همومٌ مختلفة، أريد أنْ أبعد قلبي عن المعصية، أنْ أُطهِّرَ روحي، سأحملُ مقصَّ الأعشاب في يدي وأذهبُ في رحلةٍ إلى قلبي، لأزيلَ الحشائشَ البريَّةَ من طرقاتِهِ، وأنظِّفَ الشجيراتِ الشَّائكة التي كوَّنت طبقاتٍ متراكمةً عليه، أريد أنْ أعملَ على تلميعِ مرآةِ قلبي ولساني، بأنْ لا يخرجَ منه إلا ما هو جميل، عندما

سقطتْ بذورُ الحشائش في قلبي كنتُ أردِّدُ بيتين من الشعر على لساني:

**كلما فتحتَ أمام الناس طرقاً مختلفه**

**فسيكون لكلِّ إنسانٍ حياةٌ مختلفه**

**لقد كنا في دنيا واحدةٍ**

**ولكنْ ما عشناه كان مختلفاً جداً**

عند وصولي للمنزل وبينما كنت أخلع معطفي سألتُ أمي عن ذلك الإطار، فهي تعرف مكانَ كلِّ شيءٍ في المنزل؛ حتى لو كان ثَقْباً في مكانٍ ما من المنزل رأتْه منذ زمنٍ بعيد.

وجدتْه في أسفل صندوق وأخرجته! نعم لا يزال جديداً، إطاري أيضاً لم يكنْ ليبقى فارغاً، أخذتُ أوَّلَ مجلدٍ من مكتبةٍ ذاتِ ثلاثةِ طوابقَ مغطَّاةٍ بالكامل بمجلاتٍ بداخل مجلداتٍ كرزيةِ اللون؛ كلُّ مجلدٍ كان مكوَّناً من اثني عشرة مجلة، على غلافِ أوَّلِ مجلةٍ توجد صورة طفلٍ يبكي، نظراتُهُ تمطر دموعاً، بقيتُ أنظرُ إلى تلك الصورة المؤثِّرة، عينا هذا الطفلِ المسنَّة أيقظتْ بداخلي الكثيرَ من الوجع.

وضعتُ الإطار فوق غلافِ المجلةِ وأخذتُ مقاسَهُ، قصصتُهُ بحذر، ووضعتُ صورةَ الطفل الباكي في الإطار، نظرتُ مرَّةً أخرى، الكتابةُ التي أسفلَ الصورةِ أيضاً كانت متناسبةً ضمنَ الإطارِ، يمكن قراءتها: «لنقلْ أنَّك لا ترحمُ نفسك.. لكنْ.. ألا ترحمُ ابنَك!».

كانت جميلةً، ولكيلا تبقى هنا بعد انتهاءِ الإجازة أخذتُها ووضعتُها في جيب الحقيبةِ الجانبيِّ وأغلقتُه بإِحْكامٍ.

# كَلْبُ الحِرَاسَةِ

أتذكَّرُهُ جيداً، لقد حدث في مثلِ هذا اليوم، كيف لي ألا أتذكَّرَ ذلك، لقد كان واحداً من أهمِّ أيام حياتي؛ استأذنَ الصيفُ مغادراً، ومضى الكثير على دخولِ الخريف، انتهى وقت الصيفِ ولكنَّه لا يدع الخريف وشأنه، يُحرِقُ أوراقَه ويهاجمُهَا من هنا وهناك، وصوتُ تساقطِ قطراتِ الماء على التربة، والشمسُ تُظهِرُ نفسها لبضعة أيامٍ لتحرقَ أحناكَ الناس وآذانهم؛ لشمسِ الخريفِ تأثيرٌ أيضاً رغم ضعفِ حرارتِهَا وقلَّةِ سطوعِهَا.

قلت لأصدقائي: فلنذهب إلى الحديقة قبل أنْ يبدأ الشتاء هنا أو هناك. قرَّرْنا في النهاية الذهابَ لتمضيةِ يومٍ في بيتٍ ريفي. اتصلْنا بهم لنحجزَ يوماً، وافقوا على مجيئنا؛ على أيِّ حالٍ هم دائماً موجودون أيامَ الأحد، لبسنا حقائبنا على ظهرنا وانطلقنا.

في البداية ذهبنا إلى هناك بباصاتِ النقل العام، ثم بعد ذلك مشياً على الأقدام؛ عندما نزلْنا من الباص؛ وجدنا أنفسنَا في جنَّةٍ من الأوراق حمراء اللون، حتى للأوراق اليابسة الجافَّةِ المتساقطةِ أنواعٌ أيضاً، لكلِّ أوراقِ شجرةٍ جفافُهَا الخاص بها، شجرةُ الليمون مثلاً تتحوَّلُ أوراقها ذاتُ الملمسِ الجافِّ على امتدادِ تفرُّعِهَا إلى اللَّون الأصفرِ الذهبيِّ.

كانتِ الشمس تزيدُ من اصفرارِ كلِّ شيء، وكلُّ ما رأيناه في هذه القرية كانَ مليئاً بالحياة، في داخل كلِّ واحدٍ منَّا إحساسٌ وكأنَّه داخل لوحةِ رسم، لا يوجد شيءٌ حولنا سوى رجلٍ كان يقومُ بتجديد لوحةٍ صُمِّمَتْ لأجل عشرةِ أشخاصٍ، أشار لنا إلى وِجهتِنَا، كان بيتاً على القمة ذا حديقةٍ قديمة، يتصاعد من فنائه دخانٌ أبيضُ اللون منتشراً في السماء الزرقاء.

كنَّا نمشي ونمشي ولا نقترب، المسافة لا تنتهي، كم هو بعيدٌ هذا البيت! كنَّا نتصبَّبُ عرقاً، وبدأ الجميع

يتأفَّف، تسابقنا مَنْ سيصل أولاً، كنت متعباً؛ لم يكنْ يكفيني النَّفَس الذي كنتُ أستنشقه، فتحتُ فمي بِمَلْئِهِ.

اقتربتُ أخيراً إلى باب الحديقة، طرقتُ جرسَ البابِ بظهري من شدة تعبي.. الآن أصبحت أفهمُ شعورَ الكلب عندما يلهث ويُخرِجُ لسانَهُ من التعب، هناك أثرٌ على الأرضِ لِلُعاب كلبٍ يميناً ويساراً.

أسمعُ صوتَ عواءِ كلب، كان خلفي تماماً، ألقاني الكلبُ أرضاً وأخذَ يلعقني، رغم كلِّ تعبي أخذتُ أبعدُهُ عني وأدفعُه، كان كلباً أبيضَ اللون، لسانه أحمر متدلٍّ، كان ينظرُ إليَّ وأنظر إليه.

هبَّ هواءٌ ساخن على جسدي، الوقت لا يمشي، وكأنَّني في فيلمٍ يعادُ بالحركةِ البطيئة، فقط الكلب ولسانه المُتدلِّي هو الحَدَثُ الوحيدُ الواضح فيه.

لحسنِ الحظِّ؛ صوتٌ قادمٌ من الحديقة غيَّرَ هذا المشهدَ المخيف.

ـ شيطان.. شيطان، دعْه إنَّه ضيفي.

انسحب الكلب لدى سماع الصوت، كان رجلاً

مستلقياً عند ظل الشجرة، نظر إليَّ بعينٍ نصفِ مفتوحة وأكمل نومه، وكأنَّه ليس نفس الشخص الذي قد أنقذني قبل قليل!

أرحتُ جسدي قليلاً بعد كلِّ هذا التَّعب الذي مرَرْتُ به، وأخذتُ نفساً عميقاً ليعود الدَّم إلى عضلاتي التي تشنَّجتْ كلُّها.

كنت أحاولُ جاهداً ألا أنهار في المكان الذي أنا فيه، لم أردْ أنْ أُظهِرَ خوفي، لم تكنْ رجولتي لتسامحني، يمكنك إخفاءُ خوفك قدْرَ ما تريد، ولكنَّ الناس سيشعرون به.

جاء أصدقائي بجانبي ليواسوني قليلاً ويذهبوا، توتري كان واضحاً، كنت أقول لنفسي: ما بك؟! لم يحدث شيء.. كلُّ ما هنالك كلبٌ مسعور.

عندما يمرُّ الإنسان بلحظةِ ذُعْرٍ يفكر بأشياءَ لا معنى لها، بقيت في عقلي كلمة: «شيطان»، لقد قال الرجل: «شيطان» لكلبه، كم هو غريبٌ حقاً.

أخذني أصدقائي وأجلسوني عند أسفل الجدار، كان

في حقيبة أحدِهِم زجاجةُ ماءٍ أعطاني إيَّاها لأشرب، كم هو غريبٌ هذا «الشيطان»! جعلني أشربُ الماء وفمي مفتوح.

أخذَنا صاحبُ المنزل بعد ذلك إلى الحديقة وهو يضحك من تعبنا. في القسم الشمالي للمنزل ظهر ظِلُّ رجلٍ على ظِلِّ الشجرة، كان قد أشعل نار الشواء، رائحةُ الفحم ملأتِ الأجواء.

كانت صدمة حياتي! انسجم أصدقائي في الأجواء فوراً، بعضهم يلعب بالمكعب، والآخر يصنع أرجوحةً من الشبك.

حتى الآن لم أكن قد نسيت كلمة «شيطان»، كان الرجل يُقلبُ اللحم من جهةٍ ويضع الفحم من جهةٍ أخرى؛ يقلِّبه قبل أن يحترق، ويقلِّبُ الفلفل أيضاً.

لا أعلم! هل أنا بكامل وعيي؟!

كنتُ كمن وقع من أعلى السقف! ومع ذلك سألتُهُ:

ـ لماذا اخترتَ «شيطان» اسماً للكلب؟!

نظر إليَّ بعينيه الحمراوين من لهيب الدخان، والتجاعيد بين حاجبيه ظهرت كالوديان، ثم أخذ قطعةَ

لحمٍ كانت قد وقعتْ على الأرض ووضعها جانباً وقال لي:

ـ حتى ينتظر في الحديقة.

لم أكن قد فهمت العلاقةَ بينهما، لذلك عدت وسألت:

ـ وما علاقة ذلك؟!

قام بتهوية الدخان بذراعيه، كان يُديرُ الشواء من جهة ويرد على أسئلتي من جهة أخرى:

ـ أليس كلباً؟! طبعاً سينتظر.

لقد كان واضحاً أنه مشغول، ولكنني لم أكنْ لأتراجعَ عن أسئلتي حتى أفهم الحكايةَ.

ـ لا.. إنني أسأل عن اسمه، ما علاقة هذا باسمه؟! لقد سمَّيتَه «شيطان»!!

كانت إعادتي للسؤال كالبنزين الذي أعاد إشعالَ نارِ الشِّواء.

قال الرجل:

ـ وأَلَا ينتظرُ الشيطان؟!

حجبَ دخانُ الشواءِ رؤيةَ وجهِ الرجل عنِّي، فصرْتُ أتحدَّثُ مع نفسي:

ـ نعمْ؛ الشيطان ينتظر، يجمع لك أفعالَكَ ويعرضها أمامكَ يومَ الحساب.

ربُّما يكون هذا هو الجواب، ولكنني سألتُ مجدَّداً:

ـ لماذا؟ وهل هو يوم الحساب؟ ماذا لو احترقنا في نار جهنم؟

لم يَبْدُ عليَّ أنني سأتوقف عن الكلام، جملي المبهمة لم تنتهِ؛ لذلك أجاب الرجل:

ـ لا.. هي الحدود التي يرسمها الله للإنسان.

لم يكن ما قاله مفهوماً.. لماذا؟ هل ينتظر الشيطان حدود الله؟! ألم يكن قد عارضَهُ؟!

خطوةُ الشيطان ثابتةٌ لا تتغيَّر فلماذا ينتظر حدودَ الله!

أردتُ السكوتَ حينها، ولكنني لم أفهم.

ـ أين تدرس أيُّها الشاب؟

ـ في قسم الآداب.

ـ على الأغلب لم تقرأْ كتابَ: مثوى السيد بير؟

ـ هل تقصد المولى؟

ـ نعم؛ السيد بير.

ـ لا لم أقرأْهُ، وماذا فيه؟

هنالك جملةٌ بداخله تقول: «كلبُ الحراسة معبودُ الشيطان، يَعَضُّ مَنْ يقتربُ من بابِ المزرعة».

ـ كن رجلاً وضع حدّاً لهذا.

ـ ولكن؛ حتَّى لو اقتربْتَ من الكلب لا تنظرْ إليه على أنَّه ذنْب فهو في النهاية كلب، سيَعَضُّ على الأكيد.

ـ يجب علينا ألا نتجاوزَ حدودَنَا؛ أليس كذلك؟

تأثَّرتُ جداً بكلامه، هذه أوَّلُ مرَّةٍ أسمع هكذا تعليقٍ في حياتي.

نظرتُ إلى الكلب بعدَها.. كان يغطُّ في نومٍ عميق.

# أَنْتَ لَسْتَ مِنْ هُنَا

عندما وصلتُ إلى الدُّكان وجدته يمزِّقُ النايلون الذي يغلِّفُ الصناديق، يَصُفُّ البازلاءَ المعلَّبةَ على الرُّفوف.

كان البائع مرتدياً مريلةً ذاتَ جيبين من الأمام، النُّتُوءُ في حلقه يتحرَّكُ إلى الأعلى والأسفل كلما بَلَعَ لعابَهُ، جسدُهُ أشبهُ بهيكلٍ عظميٍّ مكسوٍّ بالجلد، بمعنىً آخر كان نحيفاً جداً، في المرة الماضية عندما سمعت كم يبلغُ وزنُهُ وقفتُ مذهولاً! خمسٌ وأربعون كيلو غراماً بالضبط! رجلٌ بالغ.. متزوج.. يزن خمساً وأربعين كيلو غراماً فقط!

كان لديه عاملٌ مبتدئٌ يقدِّم له المساعدة، ومن جانبٍ آخر أيضاً عُرضَ على شاشة التلفاز فيلماً عن الفضاء، لكنَّه كان مشوشاً من سوء الإرسال الذي يأتي تارةً ويذهب تارةً أخرى، يحكي الفيلم قصة الكائن الفضائيِّ

«أندروميدا» الذي ظهر في مكانٍ ما يجولُ في الفضاء مقترباً من العالم بشكلٍ أو بآخر.

المقصود بالعالَم الولايات المتحدة الأمريكية بالتأكيد، وباختصار كائنٌ فضائيٌّ غريبٌ لا يأكل، لا يشرب، قليل التَّحدُّث، لا يغضب، رقيق القلب.

يدور الفيلم حول ضيفٍ غيرِ معروفٍ جاء إلى منزل عائلة مزارعٍ في وسَطِ حقلِ الذُّرة، يريد ألفَ شخصٍ يشهدون على رحلتِهِ الفضائية! كانت حركاتُهُ غريبةً جداً..

شكَّ المزارعُ بأمرِ هذا الكائنِ الخارقِ للطبيعة. عندما كان القمرُ يظهر في السماء، كان الضيفُ يخرجُ إلى الحديقة ويتأمَّل السماءَ بإعجابٍ وخوف:

ـ لا يمكنُ أنْ يكونَ الإنسانُ معصوماً عن الخطأ! لا بأس بقيامك ببعض الأشياء الخاطئة في بعض الأحيان يا صديقي! أنتَ لستَ من الدنيا، لستَ من هنا، لست من هنا!.

لم يكن الفيلم واضحاً، فالإشارةُ كانت تأتي وتذهب، إذا قلتم: كيف بنظرةٍ واحدةٍ فهمتَ محتوى الفيلم؟ فلأنِّي

كنت أشاهده في المنزل أيضاً، ولكنْ جئتُ إلى الدكان لأشتري خمسةَ كيلو غراماتٍ من زيت الذرة.

نعم؛ لقد أتيتُ لأشتريَ خمسة كيلو غراماتٍ من زيت الذرة، لقد كانت تنكاتُ الزيت هناك بجانبِ أكياس السكرِ، مرسومٌ عليها أكوازُ الذرة الصفراء.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

عندما قلتُ: خمسةَ كيلو غرامات أَثَرْتُ الذئب بداخلي، فضولي كاد يقتلني، سألته مبتسماً:

ـ إنَّك تزن فقط خمساً وأربعين كيلو غراماً يا أخي! كيف من الممكن ذلك؟! هل تتَّبعُ حمية؟ هاها!

وضعَ العلبةَ المعدنيةَ التي كانت في يده فوق المعلَّبات الأخرى. حَرِصَ لسنواتٍ على الاختباءِ من النَّظَرات المُستهْجِنَةِ له، ولكنه اضطر للظُّهورِ والتَّحدُّثِ عندما وقع منه غطاءُ العلبة على الأرض.

ضاقت عيناه وأصبحتا ضَبَابَيتين، قال بصوتٍ حزينٍ بائس:

ـ هذا ليس عذراً للكسل والخمول، فَـ «مبارك»، في مدينة أورفا عندما ذهب إلى مشيئة الله كان وزنُهُ خمساً وثلاثين كيلو غراماً.

بقيَتْ عيناياَ مُحدِّقةً في عينيه.. سُحِرتُ بهما.. رأيتُ في تلك العينين تشامداغ، إسبارطة، إسكي شهير وأميرداغ، متجمدةً من البرد كالغرفةِ مفتوحةِ الشبابيك، خَرَزٌ يَصبُّ منه السُّمُّ، ذاك الوجهُ المرعب، تلك النَّظرةُ المتعبة السوداء.

عدْتُ لوعيي وتبخَّرتْ تلك المشاهد من أمامي ولم أعدْ أتذكَّرُ إلا خروجَ هذه الكلماتِ بشكل لا إراديٍّ من فمي:

ـ أنت.. أنتَ لستَ من هنا.. لستَ من هنا!

# لَقَدْ رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ!

سأل الرجل سؤالاً وهو يشير إلى اسمِ مؤلِّفِ الكتاب المكتوب بالخط العريض «فاوست غوته»:

ـ أصدقائي.. هل رأى أحدٌ منكم الشيطان؟!

نظرَ إلينا واحداً واحداً..

ـ هل رآه أحد منكم شخصياً؟! أو الْتقَطَ له صورة؟! حتى أراه وأُؤمِنَ بوجوده؟

خلْفَ ادِّعائهِ الصَّارخِ هذا اعتَلَتْ وجهَه ابتسامةٌ جريئة.

بقربِ الطاولةِ كان ثمَّةَ عصفورٌ؛ يقفزُ، وينقرُ الأرضَ.. كان ينظر إلى نفسه من زجاجِ النافذة، حملَ مظهرُهُ شيئاً من العصريَّةِ والحكمةِ وقليلاً من الجنون، نعم كان على هيئةِ رجلٍ بقبَّعةٍ ونظَّارة! نظر إلى البيت المقابل من أجلِ صديقِهِ، بَدَا عليه التَّأثُّرُ لكنَّه لم يُظهِرْ ذلك، ولم

يقلْ شيئاً، جلس هكذا كالمظلوم.. على وشك أنْ يخلعَ قبعته متمالكاً نفسه، وكالجنِّ الذي نجَا من الضوء أخذَ لقمةً من الطعام إلى فمه، التقطَ الطعام أولاً من منقاره ثم رفع رأسه إلى الأعلى إلى أنْ نزلت اللُّقمةُ إلى الأسفل، انتفختْ معدتُهُ من الطعام، يكاد ينفجر، وكآخرِ جزءٍ شرب القليل من الماء ليرتاح قليلاً.. تلك هي السعادة.

بعد أنْ تتْبعَ الناس وتصدِّقَ أقاويلَهم وادِّعاءاتِهم ماذا يحصل؟! تذهب النقودُ إلى الجيوب؛ تارةً يقولون لك شيطان، وتارةً ملاك، لكلِّ شيءٍ خالقُهُ، تارةً جنَّةٌ وتارةً نار.

في الحقيقة الجنَّةُ في الدُّنيا لمن يستطيع إيجادَها من طرفِ نورِ المعرفة.

فتحَ الصحيفة وتأملها بتمَعُّنٍ مدركاً جميع التفاصيل، بدأ بقراءتها..

ـ لقد وصلتْ أمريكا إلى مرادِهَا مجدَّداً، قام رائدُ الفضاء «كابكان فيرل» في منتصفِ ليلةِ أمس بالصعود إلى الفضاءِ بالمركبة الفضائية «أندى فور» وقام بالهبوط على

سطح القمر بالشكل الذي كان مخططاً له، هنا كما يميِّز هذه الرحلة عن باقي رحلات الفضاء السابقة.

نظرَ بطرفِ عينِهِ إلى المستمعين وأكمل حديثَهُ:

ـ لقد تحقَّقَتِ الرحلةُ بشكلٍ لا يصدَّق! الدَّقائقُ الأولى لإقلاع المركبةِ مرَّتْ بسلام، الفترةُ التي استغرقتْهَا للوصول إلى سطح القمر والعودةِ منه قام بالإعدادِ لها طاقمٌ مؤلَّفٌ من ثلاثةِ آلافِ شخص، استغرق ذلك أشهراً من العمل المتواصل، ورغم كل المعطياتِ الحسَّاسةِ والتَّعقيداتِ التي واجهتها قبل الانطلاق تمكَّنت المركبةُ الفضائيةُ في النهاية من الهبوطِ على سطحِ القمر.

«نجاحُ أوَّلِ عملٍ كهذا لعلماءِ الفضاء.. لقد تفوَّقْنَا يا رجال!».

ـ وماذا عنَّا؟

كان أحمدُ مبتسماً، وكان يرتدي على ظهرِهِ حقيبةً، وبيده صحيفةٌ جالساً على الكرسي يقرؤُها.

صوت الجُمَلِ التي تقولها «إنجين» تلامسُ لغةَ القلبِ في مكان ما.

ـ المواضيعُ المتعلِّقةُ بالدِّينِ لا تُحَلُّ بالمجادلة، طالما المجادلةُ مستمرةٌ فستوجِّهُ الشخصَ إلى الطريق الخطأ.

ـ يا إلهي!

ـ افتح أبواب عقلك.. هذا يكفي.. ابحثْ عن الحقيقة في ذاتك.

وابقَ هناك.. لا تجادلْ!

ـ انظرْ! يراني وهو في وضعه هذا، كأنني كنت مخطئاً، انظر كيف يتوتر؛ ألا ينبغي أنْ أُظهِرَ رَدَّةَ فعلٍ لذلك، فأي ذهابٍ يقابلُهُ عودة، وأيُّ جملةٍ يقابلها مرادف!

ـ لا لا تظهر شيئاً، انظر الآن كيف يتكلم بشكلٍ رائع، وأنت هنا تحاول جاهداً لتتفوَّقَ عليه، هدِّئْ من رَوعك، ليهدأْ هو أيضاً، لقد نظر إلى ذراع الكأس، ثم فتح قشرةَ الشوكولا متخفياً، ذابت الشوكولا على شفتيه، لقد أصبح لونُها بُنياً، قسمٌ منها ذاب على لسانِهِ، شوكولا، حليب، كراميل، اختلطت حدَّةُ الكاكاو مع حلاوةِ السكر لتُنتجَ مزيجاً متلائماً من كليهما، قطع البندقِ المقرمشة. هذه هي السعادةُ بذاتها.

ـ أخي زياد، الآن نتجادلُ بشكلٍ علنيٍّ، ألا ترى!

ـ ولكنَّ الأمورَ المتعلِّقةَ بالدِّينِ غيرُ قابلةٍ للجدال.

ـ إذا أردتَ فلنكملْ حديثَنا لاحقاً عندما تهدأ.

ـ ليس لديك جوابٌ لتعطيَهُ أليس كذلك؟!

ـ بالطبع موجود. ولكنَّ هذه المواضيع حساسةٌ غير قابلة للنقاش المتوتر. فلنكملْ حديثنا إذاً بوقتٍ قد تكون فيه أهدأ.

ـ أنتم دائماً هكذا! ليس هناك أي فائدةٍ من حديثي مع أحد، فهو يقف أمام حديثي كالميت، مؤسفٌ كيف تذهبون جميعُكُمْ في نفسِ الطريق كالقطيع، تحرقون ما بداخلكم.

يرُصُّ على أسنانِهِ.

ـ يريدنا أن نَتَّحدَ جميعاً كقريةٍ بدون مختار، كالمدفع الرشاشِ يريد العدَّ، العدّ، العدّ، العدّ.

أرادَ أنْ يكملَ حديثَهُ بمنطقٍ متعصِّبٍ فقال:

ـ طالما أنَّ مَنْ يقومُ به يعرفُهُ جيداً فعلى الأكيد فإنَّ من يتحدَّثُ يعرفُهُ أيضاً.

يُسحب إلى داخلِ عاصفةٍ كبيرة، إذا تكلَّمَ سيستمرُّ الجدال وإذا سكتَ ستقعُ الحقيقةُ أرضاً، توتَّرت الأعصابُ، وتشنَّجت العضلات.

ـ افتحْ طريقاً إلى عقلك. .دعْه يكنْ طريقَكَ،كم هو صعبٌ الصمت عندما تكون محقاً، إنَّكم تُضيِّقون الدنيا الواسعة على أنفسكم.

لا تأكلْهُ ولا تشربْهُ ولا تلمسْهُ ولا تقتربْ منه ولا تنظرْ إليه!

فيمثل هذه الحال قول الشاعر: «لا تفكِّرْ. .تمنَّ ببساطة، انظر إلى الحشرات كيف تفعلُ ذلك وتعلَّمْ».

ـ واسعُ الأفق؛ يجب أنْ يكون واسعاً قليلاً، كن مرتاحاً.

ـ إذا كنت لا تزال تقول «شيطان» فلا وجودَ له!

أخرِجْ صورتَهُ من جيبك وأرني لأصدِّق، وسأعِدُكَ إذا رأيتُه أنْ أبدأَ بالصلاة، أعدِكَ وعدَ حرٍّ، انظر! حتى إنَّني أكتبُهُ هنا، فليشهدْ على وعدي لك.

ـ يجب أنْ يكون الإنسانُ حساساً، يجب أنْ يمضيَ

الرجل قُدماً كالشريط المعاكس، يجب ألا يدخل في نقاشٍ عقيم.

ـ شكراً «إنجين» لشرحِكِ هذا المثال بشكلٍ جميل.

ـ بسم الله، انظر يا زياد؛ سأقولُها الآن ولن أقولَ غيرَهَا: أنت شخصٌ لديك عقلٌ ذكيٌّ، قلْ لي: أليس غريباً؟

ـ وما هو الغريب؟

ـ رحلةُ الفضاء.

ـ نعم غريب! وغريب جداً!

ـ نحن مازلنا نشغلُ أنفسنَا باعتقاداتٍ غيرِ منطقيةٍ، ونحسب خطواتِنَا قبلَ أيِّ شيء، في حين أنَّهم وصلوا القمرَ بمركبةٍ فضائيةٍ ضخمة لا يقودها إنسان.

ـ طبعاً غريب! وغريب جداً أيضاً.

ـ ولكن ما قصدتُهُ مختلف.

ـ وماذا تقصد؟

ـ لقد حسبوا جيداً الطريق التي ستسلكه المركبة.

ـ طبعاً.. خطواتٌ ذكيةٌ؛ ليسوا مثلَنا يشغلون أنفسَهم

بالشيطانِ والملاك والمعتقدات. هم يعملون على تطوير العلم..

ـ ألا يبدو لك غريباً؟

ـ وما الغريب في ذلك؟

ـ تُعتبَرُ نَاسا متقدمةً أليس كذلك؟

ـ طبعاً.

ـ ألم يعملوا بدقَّةٍ وتقنيةٍ عالية؟

ـ بلى.

ـ لو أنَّهم قاموا بخطأٍ حتى ولو كان صغيراً كانت ستخفق إخفاقاً ذريعاً.

ـ وكيف لك أن تعرف؟

ـ إني أشرحه الآن.

ـ نعم كانت لِتُخفِق.

ـ حسناً.

ـ حسناً لماذا؟!

ـ حسناً نقترب من النهاية، أنت تقول أنَّه تمَّ حساب الطريقِ التي ستسلكه المركبةُ الفضائيةُ بشكلٍ كامل.

ـ نعم طبعاً هكذا أقول، وهل ثمَّة خطبٌ في هذا؟

ـ نعم؛ لقد نجحت هذه الرحلةُ بفضلِ التخطيط الجيِّدِ لها، وكان من وراء ذلك مهندسون متخصِّصُون، وروَّادُ فضاءٍ يعملون ليلَ نهارَ، يستخدمون أدواتِ التَّقدُّمِ العلميِّ الذي توصلوا إليه، يجب أنْ نصفِّقَ لهذا الإنجاز العظيم.

ـ ولكنْ ألا يبدو لك غريباً كيف حصل ذلك فجأةً رغمَ حساسيةِ القمرِ وحركتِهِ الدقيقة؟

ألا تجده غريباً وبعد محاولاتٍ عديدة ولآلافٍ من السنين، ودون القيام بأيِّ خطأٍ أنْ تنجحَ برحلة واحدةٍ وفجأةً؟!

ـ أنت رجلٌ ذكيٌّ.. فكِّرْ فيها قليلاً بينكَ وبينَ نفسِك.. آلافُ السنين.. دون تخطيطِ أيِّ مهندس.. من نفسِ المكان.. وقبلَ أنْ تتأخَّر.. آلافُ السنين.. بينكَ وبينَ نفسِك.

ـ لقد لَوَيتَ ذراعي! لا أجدُ كلمةً لأقولَهَا!

ـ اايه ولكن كان يمكنُ أنْ تقولَهَا بغموض.

ـ ولكن هناك ثمَّةَ شيءٌ؛ إذا قلتَهَا كيف ستستطيعُ حينها أنْ تكملَ طريقكَ وتستمر؟

ـ حسناً ولكنْ.. إذا كنت ستقول شيئاً، ماذا كنت لتقول؟

لقد انقطعت سلسلة أفكاره، طلب أحمد المساعدة..

ـ فكِّرْ عزيزي زيادٌ، أنتَ إنسانٌ ذكيٌّ، فكِّرْ، أليس برأيكَ أيضاً غريبٌ؟

ـ أراكَ غداً.. يجب عليَّ الذهاب الآن.

ذهب زيادٌ، نظر إلى الزجاج في الحديقة وبقيَ هكذا لفترة، كان يفكِّر طويلاً، هل كان تفكيرُهُ خاطئاً؟ كان يمكن أنْ يكونَ خاطئاً، الفرائضُ الخمسةُ التي حفظها منذ أنْ كان عمرُهُ خمسَ سنين هل صحيحٌ تركُهَا الآن؟!

تداخلت القصص، كنَّا نستمدُّ القوة من بعضنا، حتَّى إنه لم ينْتَبِهْ عندما مرَّ بجانبه فتياتٌ يرْتَدِينَ الحجابَ.

مرت الغيومُ من فوقِهِ كالقطن، أجنحتُهَا المتكسِّرةُ تقطعُ السماءَ من اليمينِ لليسار، ومن الأعلى للأسفل،

عقلُهُ لا يتقبَّلُ مثلَ هذه الحقيقة التي ترهِقُ الإنسان.. هو يرجُفُ الآن.. بقي جالساً في مكانه.

مازال ينظرُ في مرآةِ الخزانة، يخفي التوترَ الذي على وجهِهِ أسفلَ القبعةِ التي يرتديها، هاتفُهُ في جيبِهِ، وأسلاكُ سمَّاعتِهِ متدلِّيةٌ على كتفيه، نظراتُهُ كانت على بؤبؤِ عينيهِ خلفَ الإطار.

نظرَ إلى عينيه.. وحينها سمع صوت قطار.. خَطَرَتْ جملةٌ بباله كالقطار، ولكنَّها كانت كلماتٍ قاضيةً حازمةً لا تحتملُهَا نفسُهُ: «أين الشيطان؟».

إنه هناك ينظرُ إليَّ، بابتسامةٍ مؤلمةٍ جداً.. صوتُ القطار في الخلف.. لقد أغرقني هذا الطريق.. تُرَى هل سأستطيعُ أنْ أعودَ كما كنت؟

# الفِيلْمُ الَّذيْ في الصِّيْنِيَّةِ

«(الصينية): وعاء يقدم عليه الطعام».

أحياناً مكالمةٌ هاتفيةٌ قد تغيِّرُ من حياتكم، يقول أحدهم: «ألو» ويقلبُ خُطَطَكُم رأساً على عقب! تمضونَ يومكم بالكاملِ وأنتم مشغولونَ به، وهذا ما حدثَ معي في ذلك اليوم؛ رقمٌ غريب على هاتفي، يرن.. يرن، ليس من عادتي ألَّا أجيبَ على الهاتف، أجبتُ، رَدَّ عليَّ صوتٌ بعيد:

ـ أنا عمُّكَ من أضنة!

سررتُ كثيراً.

لم ألتقِ بعمِّي هذا منذ قرابة الخمسِ أو ستِ سنوات، والسبب حادثةٌ لها علاقةٌ بالماء.. كان يأتي باستمرارٍ إلى المشفى في قونية، الْتقى مع أحد الأطباء فقال له:

ـ أنتَ أحضِرِ الدواءَ ونحن سنقدم القبول إنْ لزم الأمر.

يقول:

ـ إذا كان العمُّ بنصفِ قيمة الأبِ، ألا يكون ابنُ الأخِ بمثابة الابن! أنا أيضاً اتصلت بك.

عندما حضنتُهُ اشتعلت النار بداخلي بسببِ صفيرِ صدره الساخن، ذاب الثلج والجليد في لحظتِهَا.

بعد أن انتهى الطبيبُ من الكشفِ عليه جلسنا نتبادلُ أطرافَ الحديث في حديقة المستشفى، حديثُهُ كان جميلاً، سألته عن ابنتِهِ الكبرى (أليف)..

مِنْ تحتِ شاربِهِ الملتوي أجاب بأنَّها طارت من العُشِّ، قال إنَّها سعيدة، لقد أنهتْ دراستَهَا الجامعية من زمن قريب، وتنتظر تعيينَهَا كمعلمةٍ في مدرسةٍ ابتدائية. كانت جفونُهُ تفتحُ وتغمضُ على ذلك التوهج في عينيه اللَّامعتين، وكان لديَّ فضولٌ أنْ أعرفَ عن (سالم) الذي في نفسِ عمري..

ـ (سالم)!.. لم يبقَ هناك مجالٌ للقول.

وبدأ يشرحُ عن مرضِهِ.

ـ تعرف الغابةَ التي خلف قريتِنَا، حتى وإنْ كانت قليلةَ الأشجار اسمُهَا غابة، في ذات يومٍ طلبني قائدُ المنطقة، ذهبتُ إليه، أخبرني أنَّه لم يجد مسؤولاً عن العمَّال هذا الموسم، وطلب مني أنْ أتولَّى هذه المهمة، كنت متقاعداً فلم يكنْ لدي مجالٌ لتقديم الأعذار، قَصُّ الصنوبر، تقليمُ البراعم، تقشيرُ اللِّحاء.. كنت أفعل ذلك، ولكن علاجي توقفَ لأنَّ الأطباءَ لدينا لم يستطيعوا القيامَ بشيء، أرسلوني إلى هنا لكي يتخلَّصوا من مسؤوليةِ علاجي.

بعد أنْ شرحَ حكايةَ مرضِهِ بالتفصيل؛ أخرجَ ولَّاعةً ووضعَ السيجارةَ في فمه، أشعلَهَا ثم قال:

ـ أنت كيف حالكَ يا ولدي؟

ولكن سالم كان قد بقيَ في عقلي.. كنت أحضِّرُ للامتحانات الفصلية في الجامعة، قلت بأنني أدرس، وأذهب وآتي من الجامعة، وألتقي بعائلتي.. قمت بالتَّعدَادِ له، وبعدها فكَّرتُ أنَّه قد حان الوقتُ لأسألَ عن

سالمٍ من جديد، تغيَّرتْ ملامحُ وجهِهِ كالنارِ التي أُشعلت في البلاستيك، فانحنى وتكرمَشَ وقال بلهجةٍ باردة:

ـ دعكَ من ذاك عديمِ الخير!

لفترةٍ وجيزة لم يتفوَّه أحدنا بشيء، زَمَّ شفتيهِ وبدأ يرسم خطوطاً من الرمل بطرف حذائِهِ، وأنا أيضاً قمتُ بالتَّخمينِ بما فعلَهُ سالم.

كنتُ أعلم أنَّه مهووسٌ جداً بالدراجات، هل كان هذا سببَ الخصام بينهما يا ترى؛ ولكن لا يمكن، لأنَّ عمِّي أيضاً كان مهووساً بالدراجات في شبابه، وأنْ يكون هذا هو السببُ احتمالٌ بعيد، أم هل كان جدالاً حول مغامرةٍ عاطفية؟! نعمْ يمكن لهذا أنْ يكون ممكناً، لأنَّه في الحقيقة كان شاباً وسيماً، إذا ذكرتَ أنَّه كان من المصلِّين والعاملين من أجل لقمة عيشِهِ فهذا ممكن، ذلك الشاب المجدُّ كان يعمل عملينِ بدمٍ حامٍ، وكان يحبُّ ما يفعل.

عندما لاحظتُ أنَّ عمِّي صنع لوحةً جميلةً على بساط الرمل في حديقة المستشفى؛ كانت الساعة تقتربُ من الثالثة..

ـ هيَّا عمِّي! قلت له.

في طريقنا للمنزل تحدَّثنا عن أصدقائي في السكن، وكيف استأجرناه، من أين أحضرْنَا الأثاث، وشرحت له كيفَ جمعْنَا المال من أجلِ أنْ نشتريَ جميعَ المستلزماتِ، عبَّر عن تقديرِهِ بعينيه.. وصلنا إلى المنزل.

شعر بالخجل، هذا ما يحدث عندما تكون في مكانٍ غريب. عند تناولِ الطعام وبينما كان يقرِّبُ المعكرونة من فمه أسقطَ البعض منها، أخذها بخجل، وضعها في الصينية، لم يلاحظْ أيٌّ منَّا ذلك.

بعد الانتهاء من تناول الطعام أسندْنَا ظهورَنَا إلى الكرسي، وأثناء احتساءِ الشاي قرَّب رأسَهُ للأمام وبدأ يهمس لي:

ـ ما أقولُهُ لسالم عديمُ الخير هو:

ـ «هل أنتَ مَنْ سينقذُ العالم؟!»

لقد أخذ سطحَ المنزل وجمعَ شبابَ القريةِ الأوغادَ وقال لهم:

ـ كل أسبوع سنجتمعُ هنا، سنتحدثُ ونشربُ الشاي.

قلت له:

ـ ما هذا الذي فعلتَهُ؟ لمَ جمعتَ عديمي الخير؟ لا تلتقِ بهم أبداً! لا يمكنك أنْ تنزعَ جلدَ الدُّبِّ.

نظر إلى وجهي ببرودٍ وقال:

ـ عندما نريهم الطريقَ الصحيحَ لربَّما نحن أيضاً سننجو يا أبي، ربَّما سيكونون السببَ في دخولنا الجنة.

ـ ما هذا الهراء!

في تلك اللحظة شعرتُ بالدِّفءِ يتدفَّقُ إلى مكانٍ ما بداخلي، توقَّفَ صوتُ عمِّي المبحوحُ وبدأ يشاهد التلفاز، كانت السجادةُ في مكان جلوسنَا مذهلة، الصبَّارُ الذي في الحوض الصغير كأنَّه قَصُّ الريحان، اللوحةُ المعلَّقةُ والكريستال اللامع على سطحها، الأريكةُ المكسورةُ والمرقعةُ بُدِّلَت إلى أثاثٍ جديد، صينيةُ النُّحاسِ التي كنَّا نضع عليها كؤوسَ الشاي أصبحت كشاشةٍ، وهناك بدأ أكرمُ يلعب الجولةَ الأولى لأصدقائه.

# أُمِّي، نَحْنُ مَاذَا يَنْقُصُنَا؟!

تلْمعُ قضبانُ سككِ القطار في وسطِ الحيِّ المُضيء، منحنيةً في نهايتها كالمِنْجَل، ازدحامُ هذه المدينةِ المتعبة، وقطراتُ المطرِ الصغيرةِ جداً التي تسقط في المساء على الطرقاتِ والمباني، وعلى الأسفلتِ المتصدِّع، كان الظلامُ المبلَّلُ والألمُ يحكمان جوَّ المدينة.

لدى تباطؤِ المحرِّك مصدراً صوتَ الفراملِ المعدنيِّ الطويل، توقَّف القطار الكهربائيُّ ذو اللونِ الأحمرِ الذَّابلِ على الحصى القديم.

أخذَ الناسُ يتدافعون للدخول إليه وكانت بينهم امرأة، ومن بينهم أيضاً طلابُ جامعةٍ قلقون بخصوصِ امتحاناتِهم وعلاماتِهم، وعمالٌ منهكُونَ بعد يومِ عملٍ متعِبٍ آخذين معهم إلى المنزل الصَّدَأَ والأتربةَ من المصانع التي غلَّفتْهم بالكامل، وعائلةُ موظفٍ مع طفلٍ واحدٍ خرجوا لتناول

طعامِ العشاءِ والتَّخلُّصِ من تعبِ اليوم. . لم يلاحظْ أحدٌ منهم خطوةَ هذا الحذاءِ الأخضرِ الرياضيِّ.

قرَّبتِ الورقةَ التي في يدها نحو عينيها لكي ترى العنوان بوضوح، جلستْ ثم أدركتْ أنَّها وصلتْ أخيراً إلى المدينة. . أمالتْ رأسها قليلاً إلى الجانبِ وأخذتْ تشيرُ بيدها ليتوقَّف، عندما توقَّفَ القطار في المحطة ونزلتْ؛ أدركتْ أنَّها أيضاً قد نسيتِ الرموز الغريبة للمدينة، فلا يتوقَّفُ القطار بإشارةِ يد.

في الشارع لم يبدُ أنَّها وصلت للعنوانِ بعدُ، فأخذتْ سلوى بالتقدُّمِ مع جميع هؤلاء الغرباء، ومع تلاشي توهُّجِ الضوء لم تعدْ ترى شيئاً من شدةِ الازدحام، لكنَّها استطاعت الخروجَ من بين الناس بأعجوبة.

عند الباب تصادفتْ مع ابنها، كان تماماً كمشهدٍ من فيلم، في البدايةِ اتسَّعتْ عيناه، رفع حاجبيه، وفتح فمَهُ من شدَّةِ الدَّهشة، وبعدَهَا سحبَتْه أمُّه بقوةٍ وعانقتْهُ، كان عِناقاً حارّاً.

بعد أنْ حضنتِ الأمُّ ابنَها بقوة، وخفَّفتْ بعضاً من ألم الشوقِ الذي كان يحرقُ قلبَهَا..

ـ أمي ماذا فعلتِ؟ لِمَ لَمْ تخبريني بمجيئك؟ كنتُ ذهبتُ لإحضاركِ من الكراج!

كانت السيدة سعيدةً مبتهجة، الابتسامةُ تملأ وجهَهَا.. أمسكتْ برأسِ ابنِهَا بكلتا يديها وقالت:

ـ لن أقولَ أنَّ سلوى قد ضاعت في هذه المدينة الكبيرة!

عند دخولها من الباب، وضعت أمتعتَهَا، وحتى وصولها لغرفة الضيوف مرَّ من أمامِ عينيها صراعُ عمرٍ بأكمله، تذكرَّتْ يومَ الشتاء البارد، كان ذلك عندما ولَدَتْ سالم.

لقد مررنا بالكثير الكثير من الأمور حتى وصلنا إلى هذه المرحلة، هذا الطفلُ الضعيف الذي جاء في شتاءٍ أسودَ جافٍّ، عندما لم يكن الحليب كافياً له ليتغذَّى فقالوا:

ـ فليشربْ شرابَ الورد حتى يأتيَ الحليب..

وضعنا ملعقةً من الشايِ في وعاءٍ من الماء لمدة أسابيعَ على أمل أنْ تكفي. كان لديه أخٌ يُدعَى مراد، أرسلَتْه أمُّه في يومٍ من الأيام إلى منزل حيدر آغا، وبيدِهِ كأسٌ مزخرفٌ بالورود.

ـ من الذي أضاع السُّكَّرَ يا ولد؟

عاد حزيناً، قال مراد الصغير زامّاً شفتيه:

ـ أمي ماذا ينقصنَا نحن، حتى إنَّنا دائماً داخل هذا النُّقصان؟!

أثَّرتْ مقولتُهُ هذه في سلوى، وراحت ترِنُّ في رأسِهَا: «ماذا ينقصنَا، ماذا ينقصنَا، ماذا ينقصنَا؟!».

ـ لقد سَعِدْتُ بمجيئكِ يا أمي ـ أيقظَهَا بقوله هذا ـ ولكن كنتُ لأحضرَكِ لو كنتُ أعلم! أشعر بالخجلِ منكِ! كيف حالك؟

ـ بخير.. بخير، لقد أتيتُ لرؤيتك، أنا مَنْ عليَّ أنْ أسألَ كيف حالك؟

كانت عيناها ثابتَتيْنِ على فمِ ابنِهَا، هل كان هذا الفمُ

غيرَ موجود؟ هذه الشفاه.. ما سمعه من أخيه: ماذا ينقصنَا نحن؟.

هذا الفمُ الذي أعطى أمَّه، أخاه، وأباه طريحَ الفراش، ومنزلَ الطُّوبِ المهترئِ القوَّةَ والقدرةَ على التَّحمُّلِ بقوله المليء بالرهبة: ماذا ينقصنَا نحن؟ هذا الفمُ الذي ـ ومِنْ دون علمِهِ ـ قَوَّى إرادةَ أمِّهِ لتحمُّلِهَا وتخطِّيهَا مطبَّاتِ الحياة.

في مرةٍ من المرَّات كان المختار كارا في ميدانِ القريةِ يُحمِّلُ الحطبَ لهذا الولد الصغير، قال لأُجرائهِ:

ـ اذهبوا أنتمْ للمنزل فالطقسُ بارد! أنتَ تعال يا سالم، احملْ هذا الحطب!

كان المختارُ أسودَ العينين والقلب معاً، اسمٌ على مسمَّى. (كارا تعني الأسود)

ـ نحن ماذا ينقصنَا يا أمي؟ كان يقول ذلك عندما يأتي منهكاً!

أمي، ماذا ينقصنَا نحن حتى يركبَ المختارُ كارا على أكتافِنَا؟!

ما زرعتْهُ جملةُ: ماذا ينقصنَا؟ في ابنها من يأسٍ وخوف، جعلتِ الدَّمَ يغلي في أوردتِهَا، فجعلتْ إرادتَها قويَّةً.. أضافت عملاً إلى عملِهَا، وجهداً لجهدِهَا.. تقول:

ـ ذَكَرُ الأسدِ أسدٌ وأنثى الأسدِ أسدٌ أيضاً، أليس كذلك؟

لم تكترثْ للتعب، عملتْ وسَعَتْ بشكلٍ كافٍ ليجعلَهَا تنسى.

ولَدَاها الصغيران الضعيفان أصبحا شابين قويين بمشيئةِ الله، بدون أنْ تهملَ زوجَها طريح الفراش، بقليلٍ من البغض، وقليلٍ من الحسد أصبح أهلُ القريةِ من نساءٍ ورجالٍ يتحدثون ويقولون: «تعملُ سلوى كالرجال!». وبارك الله لها، فبعد ذلك ادَّخرَتِ القليلَ من المال، حتى استطاعوا شراء جرَّارِ فورد أزرقَ صغيرٍ مستعملٍ.

ـ أين كنتِ وأين أنتِ الآن يا سلوى، أين كنتِ وأين أنتِ الآن! أكياسُ السكر التي تملأ مستودعك! سالمٌ الآن

يدرسُ في الجامعة! الحمد لك يا ربي، الحمد لك والشكر يا ربي الكريم.

ـ لقد سَرَحْتِ بخيالِكِ مجدَّداً يا أمي، سأُعِدُّ لكِ العشاء.. ماذا قلتِ؟

نظراتُ هذا الطفلِ المُحبَّةُ، أحوالُهُ المتسرِّعةُ.. كان سالمٌ أجملَ ما في حياةِ سلوى! قطعةً من الذَّهب!

ـ قفْ يا بنيَّ، لم أشبع من رؤيتك بعد، عَشَاءُ ماذا؟ هل تجيدُ طهوَ الطعام وإشباع معدتك، هل تكفيك النقود؟ هل أنت جائعٌ أو محتاج؟ أين أصدقاؤك الذين كنتَ تتحدَّثُ عنهم دائماً؟ ذاك الصبي، دعني أراه هيَّا!

يدخل من باب الغرفة بضعُ شبَّانٍ في تلك اللحظة، منهم من وضع شيئاً يشبه المنديلَ في الجيب الذي بجانب ياقتِهِ، وأحدهم شابكٌ أصابعه مرتبٌ شعرَه، ارتسمت ابتساماتٌ هادئةٌ على وجوههم، حالتهم كأنَّهم ملائكةٌ نزلوا من السماء، كلُّ واحدٍ منهم قال لي جملاً مُرحِّبَةً بمجيئي مثل: «أهلاً بكِ يا خالتي، لقد قمتِ بعملٍ جيد

بمجيئِكِ إلى هنا، كيف كانت رحلتك؟ كيف صحتك الآن؟».

سألوا عن أحوال الأقاربِ في القرية، أطلقوا الأسئلة، أحدُ الشباب سأل:

ـ كيف وجدْتِني هنا؟!

عقدتْ حاجبَيهَا واتسعتْ عيناها، وأخرجتْ ورقةَ العنوان من جيبها. ولكيلا يسخروا منها رسمتْ على وجهِهَا تعابيرَ تفاخرٍ وقالت:

ـ لقد كتبتُ العنوانَ على هذه الورقة.

ابتسمَ الشابُّ وقال:

ـ كلا؛ قصدتُ منزلَنَا، منزلَنَا من الداخل، هل نحن مرتَّبون أم فوضويون؟ أعطنا رأيكِ هيَّا.

فكَّرتْ سلوى بحال منزلِهِمْ كيف كان قبل سنواتٍ طوال، البساطُ الممدودُ على الأرض، القماشةُ التي تسدُّ الفتحةَ في جدارِ الطُّوبِ الخشن، الوساداتُ والمساندُ أسفلَ الجدار.. ونظرت الآن إلى هذا المنزل:

ـ جميلٌ جداً يا ولدي، جميلٌ جداً، عندما تتحدَّثُ

عن المنزل يكفي أنْ يكون دافئاً، فهذا أهمُّ شيءٍ في هذه المدينة الباردة.

سألتْ سالماً:

ـ ألم يأتِ أخوك إلى الآن؟!

أشار إلى الشاب الأشقر الذي لم تكتملْ لحيتُهُ بعدُ الجالسِ على الأريكة، أومأَ وقال:

ـ هذا أخي.

قال الشاب الأشقر:

ـ العفو، سالم أخي وصديقي!.

كانت السيدة سلوى قد رسمتْ صورةً مختلفةً تماماً لمن كان يدعوه «سالم أخي» ويتحدَّثُ عنه دائماً. تخيلتْهُ ذا شاربٍ داكنٍ ملفوفٍ، طائشاً، عضلاتِهِ منتفخةً، في ذِرْوةِ شبابِهِ، ينتفخُ أنفُهُ عندما يأخذ نَفَساً، لكنَّه كان على العكس تماماً، كيف يمكن لطفلٍ صغيرٍ كهذا أنْ يكون أخاً أكبر لسالم؟ أمْرُ هؤلاءِ الشباب أحياناً يثير الدَّهشة.

سمَّوا بالله عندما قسَمُوا الخبزَ الذي أحضروه.

أمسكتْ سكِّينَها وشوكتَهَا وبدأتْ بتناولِ طعامِهَا، ثمَّ بدأتْ تجولُ بصينيةِ الشاي على جميع مَنْ في المنزل.

جلس سالمٌ بجانبِ أمِّه على الأريكة، بدأ الجميعُ بتذوُّقِ حلاوةِ هذه اللحظات مع مرور الوقت واستمرارِ الأحاديث الطويلة. أخبرت السيدة سلوى ابنَها بجميعِ أخبار القرية بدايةً من البقر وانتهاءً بالدجاج.

وفي لحظةٍ علا وجهَهَا التوترُ وهي تروي حكايةً مأساوية عن امرأةٍ اسمها السيدةُ لطيفة؛ لم تكنْ تراقبُ ابنَهَا جيداً.. وفي النهاية وقع من أعلى التلِّ إلى الوادي.

سأل الفتى الذي كان سالمٌ يدعوه «أخي» خلال الحديث:

ـ سالم عزيزي؛ هل نقلتَ الحطبَ إلى مخزنِ آلِ ناظمٍ اليوم؟

كلُّ كلمةٍ في هذه الجملةِ أثارتْ صدمةَ وغضبَ السيدة سلوى فقفزتْ من مكانها، كانت عيناها ستخرج من مكانهما، أصابعهَا ترتجف، ارتبكتْ ملامح وجهها وعلاهَا الذُّعر، «هل هذا يعني أنَّهم هنا أيضاً يقومون

بفرضِ العمل على ابنك؟ هل مازالوا يُشعِرُونَه بالذل؟» عاد عقلها إلى وعيه، من أجل أنْ تحميه من الأذى. في القرية أفنتْ نفسَهَا، وأرسلت فلذةَ كبدِهَا إلى المدينة، وهنا أيضاً!

لم يلاحظْ سالمٌ ردَّةَ فعْلِ أمِّهِ، وجاوب قائلاً:

ـ نعمْ أخي؛ جاء ناظمٌ مع صديقٍ له، حمَّلْنَاه خلال ثلاثِ ساعاتٍ تقريباً.

قال سائل السؤال:

ـ وفقك الله.

وعاد إلى باقي الأصدقاء.

عندما أدارَ سالمٌ رأسَهُ باتجاه والدته أمسكتِ السيدةُ سلوى بذراعِ ابنِهَا وقد تحوَّلتْ أصابعُهَا إلى مخالبِ أسدٍ وغرستْها فيه وسحبته، كان الشَّرَرُ يتطايرُ من عينيها، صوتُهَا مكتوم، همست الأمُّ لابنها:

ـ هل جعلوكَ تعمل هنا أيضاً.. أَجِبْني!

لم تكن الأمُّ مدركةً أنَّها فهمت الموضوع بشكلٍ خاطئ، وأنَّها خلطت الأمورَ ببعضِهَا، كيف سيشرحُ سالمٌ

الموضوع ويُفهِمُهَا أنَّ هذا العمل لا يشبه العملَ القديمَ الذي كان في القرية.

هذا العمل هو بكاملِ إرادته، ليس بالإكراه، عندما لم يعطوه عملاً في الخدمات المشتركة أحسَّ بإحساسٍ سيءٍ، كان عليه أنْ يشرحَ لها أنَّه عندما وجدَ الجميعُ عملاً ما عداه أحسَّ بالنَّقصِ، أنْ يبقى ثابتاً في مكانه بينما يتقدَّمُ الجميعُ.. هذا الشعور كان يأكله من الداخل، لم يكنْ شيئاً يليق بشبابه، الأعمال هنا دائماً تحدث بتعاونٍ، ولكن من أين سيبدأ؟

كان من الصعب الشَّرحُ لأمِّهِ وجعْلُهَا تصدِّقُ أنَّ ما رأتْه ليس بالصورةِ التي في مخيلتِهَا، بأنَّها وبعد أنْ أبعدَت ابنها عن الذلِّ والأذيَّة في القرية وركَّبتْ له جناحين ليطيرَ بهما إلى المدينة...

ابتلعَ لعابَهُ، بسعلتين خفيفتين فتحَ مجالاً للحديث:

ـ أمِّي، حبيبتي، أمِّي! يا أمِّي العزيزة، من أجل أنْ يكوِّنَ أصدقائي هذه الصورةَ الكبيرةَ المتكاملةَ يعملون بتعاونٍ لتأمين هذا الشيء، وأنا أيضاً عليَّ القيامُ

بمشاركتهم من طرفٍ ما، أليس كذلك؟ لا يليقُ بابنك أنْ يقفَ متفرِّجاً بينما يعمل أصدقاؤه جميعهم، أليس كذلك؟ إنَّني أُؤْجَرُ من الله على ذلك أيضاً! عملنا مشترك! تستطيعين أنْ تضعي حجراً لكن كيف تبنينَ جداراً كاملاً! هذا أيضاً تعاونٌ معنويٌّ! ليكنْ لسالم أيضاً حصةٌ في هذا العملِ، أليس كذلك؟

ـ جيد؛ ولكن..

قالت السيدة سلوى بحزن:

ـ من أجل أنْ أحميَكَ من العمل الشَّاقِّ اليدوي أردتكَ أنْ تتعلَّم.

ابتسمَ سالم، وقرص أمَّه بلطفٍ من خدَّيها، ثم قال بصوتٍ واثقٍ صارم:

ـ أمي؛ ماذا ينقصنا لنكونَ متخلِّفينَ عن فعلِ الخيرِ وكسْبِ الأجر؟ قولي لي ما الذي ينقصنا؟!

خرجت هذه الكلمة المعتادة؛ من الغرفةِ، المنزلِ، المدينةِ، رائحةِ الرَّوثِ، قريةِ اللبنِ، الذِّكرياتِ المؤلمة في القرية، الوجهِ الأسودِ للمختارِ كارا، فنجانِ الشاي

المزخرفِ بالزهور من أجلِ طلب السكرِ وعودتِهِ فارغاً، مرةً أخرى رنَّ ذلك الصوت في رأسِ السيدة سلوى، رنَّ ورنَّ: «ماذا ينقصنا؟! ماذا ينقصنا؟! ماذا ينقصنا يا أمي لنبقى في الخلف؟!».

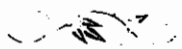

# أُصُولُ مَعْزُوْفَةِ البُزُقِ

حصلَ كلُّ شيءٍ في لحظةِ وضعِهِ لفنجانِ القهوةِ بجانبِ الحاسوب بعد أنْ أخذَ رشفةً منه، لم يستطعْ حتى أن يبتلعَهَا، أصبحت الشاشةُ كلُّها زرقاءَ في لحظةٍ واحدة، كان يضعُهُ على ركبتيه، لقد تعطَّلَ تماماً، بقي هكذا دون أيِّ استجابة، لم ينفعْ معه أيُّ محاولةِ ضغطٍ لزرِّ إنتر أو غيرِهِ، حاول بكلِّ الطرق لكنْ بلا أي جدوى، لقد انهارَ تماماً وبقي هكذا، حتى لم يستطعْ إعادةَ تشغيله.

وهل يوجد أسوأُ من ذلك؟ ذهبتْ كلُّ المستندات، كلُّ شيءٍ محفوظٍ منذ ثلاثِ سنوات إلى الآن؛ الأفلام، الفيديوهات، الموسيقى، الكتابات.. هناك شيءٌ اسمه «النسخُ الاحتياطيُّ»، لكن طبعاً إذا لم تمرَّ بشيءٍ كهذا من قبل فلن يخطرَ على بالك القيامُ به، ذهب كلُّ شيءٍ الآن،

في ذلك الوقت لم تكن هناك برامجُ حمايةٍ، حتى إنَّهم على الأغلب لم يفكِّروا بها.

والأسوأ كان ذهابَ العرض الذي كنت قد حضَّرْتُهُ للطلاب، التوحيد، النبوة، والحشر كانت قد انتهتِ الأسبوع الماضي، أمَّا الآن فالموضوع هو الوجود الروحي، كانت ناقصةً ولكنَّها مهمةٌ جداً، في حين أنَّ جميعَ المعاني صارمةٌ وواضحةٌ؛ لكن يجب على الشباب أولاً إثباتُ أنفسِهِمْ، ولكن يجب أنْ يؤمن بنفسه أولاً أليس كذلك؟ يقول الشاعر: «في البداية آمِنْ بالشيء ثم أقنعنِي به»، اثنان ضرب اثنان أربعة.. يجب إثباتُ كلِّ الحقائق.

أخذ يتجوَّل في الشوارع وبداخله تشاؤمٌ يسيطر عليه، حِمْلٌ كبيرٌ على عاتقه، قلبُهُ مخنوق، جلس بعد ذلك على كرسيٍّ حاملاً بيده حقيبةَ أوراق، وضعها على ركبتيه حتى لا تذهبَ هي أيضاً، الحياة لا تساوي شيئاً. سيأتي يومٌ أيضاً وسيتعطَّلُ هو أيضاً كما تعطَّل الحاسوب، هل يبالغ بحزنه وعدمِ استيعابِهِ لما حصل يا ترى؟ لا يعرف؛ ولكنَّ

ما يعرفه أنَّه يشعر بانزعاجٍ كبيرٍ، وكأنَّه داخل فراغٍ كبير، وبما أنَّه لا يستطيع فِعْلَ أيِّ شيءٍ حيالَه فسيأخذه إلى خَبيرٍ بأقرب وقت، كان الوقت يقترب من المساء.

دخل محلَّ حواسيب معروف، كان هنالك زبونٌ استغرق عشر دقائق، كان بيده بُزُقٌ، لم تكنْ هناك رائحةُ دخانٍ في المحل، بل كان هناك شيءٌ أبيضُ اللونِ مستطيلُ الشكل فوق الخزانةِ يُنعِشُ الجو، ويبخِّرُ الأجواءَ برائحةِ العتاقةِ والأصالة.

كان يحبُّ الموسيقى التُّراثية ولكنَّ هذا كان مختلفاً، أصابني الفضولُ لمعرفةِ هذه المقطوعةِ التي تبعث بالسعادةِ من وسط هذا الحزن، اقتربَ إلى اللوحة التي على الطاولة، اسمُ المقطوعةِ: «سماعي ماهور»، لقد فتحت النور على عينيه، وشعر وكأنَّها قد أزالتِ الحِمْلَ عن ظهرِهِ واستبدلتْهُ بأجنحةٍ بيضاء.

في هذه اللحظة فهم ما كان يحاولُ الزَّبونُ شرْحَهُ، المسكين كان يحاول بجدٍّ شرْحَ الفرقِ بين معدات البرمجيات للشخص الذي في مقابلِهِ.

ـ انظرْ أخي؛ لقد أصلحنَا حاسوبك، ولكنْ يجب أنْ نُحمِّلَ عليه برنامجاً، فبدونِهِ لن نستفيدَ شيئاً؛ دفعتَ النقودَ لتصليحِهِ فلا تجعلْهَا تذهبُ سدىً لأجلِ بضعِ نقودٍ زيادة.

ـ لا!.. وهل تظنُّ أنَّني ماكينةٌ تطبع النقود؟!

لم يكن ذوقُهُ العالي في الموسيقى يتلاءمُ مع أسلوبِهِ الفظِّ في الحديث.. استمعَ إلى حديثِهِمْ دون إرادته، ولكنَّه في الحقيقة لم يكنْ ليريدَ أنْ يكون مكانَ صاحبِ الدُّكَّانِ في هذا الموقف في تحمُّلِهِ لشرْحِ كلِّ هذا لرجلٍ لا يفهم!

ـ قلت لك: إذا أردتَ أنْ يعملَ جهازُكَ فلابدَّ أنْ تُحمِّلَ عليه هذا البرنامج.. إذا أردتَ خذْ من مكانٍ آخر أو من عندنا، أنت حرٌّ؛ ولكنْ بدون هذا البرنامج لنْ يعمل.

ـ أنتم لصوص بلا شك!

ـ انظرْ يا أخي؛ ألا ترى أنِّي مشغول، لقد أضعتُ من وقتي الكثيرَ معك، نحن نتحدَّثُ هنا لثلاث ساعات.

ـ بل أنت من سينظرُ إليَّ.

ـ نعم سيدي.. خيراً.

ـ إذا قمتُ بضربك الآن فسوف يحصل ما لا تعرفه.

ـ ماذا سيحصلُ يعني؟!

ـ أجعلكَ أنت وهذه العوارض الخشبية واحداً.

ـ وماذا لو لم تستطعْ تحمُّلَ العواقبِ التي ستحصلُ بعده؟

ـ كيف يعني؟

ـ لا تقل كيف؛ أنت بدأتَ التحدِّي.

ـ دعْنِي أقلْ لك باختصار: أصدقائي ممن سيقفون بجانبي كثيرون، فكِّر جيداً قبل أنْ تقولَ ما قلتَه.

ـ دعْكَ منِّي وانظرْ إلى نفسك ماذا تقول!

ـ ما أقولُهُ واضح، سيكون هناك من سيضحِّي بروحِهِ ويذهب، ولن يتجرَّأَ حتى أنْ يفكِّر بالعودة، فهل تعودُ الرُّوحُ بعد ذهابِ الجسد؟!

ـ إذاً أنتَ تعرفُ ذلك.

ـ ما الذي أعرفه؟

ـ ذهابُ الرُّوحِ عن الجسد.

ـ نعم.

الحاسوب مثالٌ على ذلك.

ـ ماذا تقصد؟!

ـ يعني الحاسوب الآن عبارةٌ عن جثَّة! إذا وضعنا بداخلِهِ روحاً سيصبحُ كالرجل الحيِّ.. سيعمل. الآن هو كالميت.

ـ وماذا سنفعل؟

ـ سنُحمِّلُ عليه البرنامج.

ـ ماذا الآن؟ هل يجب عليَّ تحميلُهُ؟! بدون تحميله.

ـ يا أخي؛ من أين أتيتَ الآن؟! أنت مصيبةٌ وقعتْ على رأسي!

فوق رأسِ الزَّبونِ ورقةٌ معلَّقةٌ كُتِبَ عليها: «نظام التشغيل.. البرمجيات»، وبعزْفِ الكمانِ السريع وصلَت الأسلاك إليه، ومع أنَّها «مقطوعةٌ قويةٌ، لكن عزفَهَا سهلٌ».

عاد إلى وعيه، شعر وكأنَّ ضوءاً قد أنار في عقله،

رجعتْ سعادتُهُ إلى مكانها، وجدَ ما كان يبحثُ عنه في السماء على الأرض! فالجسدُ يتلاءمُ مع حالةِ الرُّوح.

في تلك اللحظة.. وكأنَّه أخذَ لكمةً حكيمةً بداخله قالت له: «توقف».

يبدو أنَّ الوضعَ قد هَدَأَ، نظر إليه، خرج من فمِ البائع كلمةُ شكرٍ جميلة، قام الآخرُ بِقَرْصِهِ من وجنتيه، أَهو مجنونٌ يا ترى؟! لم يكن يهمُّه فليظنُّوا ما يريدون، كان قلبُهُ نقياً.

خرج راجعاً إلى بيتِهِ وهو يقفزُ من السعادة، لم يتوقَّفْ عن عزفِ مقطوعةِ «سماعي ماهور» في داخله.

# وَهَلْ يُعَدُّ؟

أوَّلُ صعودٍ لقمةِ الجبل ومع إشراقةِ الجوِّ. . صوتٌ في الأُفُقِ يبدو كحبَّةِ عنبٍ كبيرة، تميلُ العلامة متجهةً إلى الأعلى في صعودِهَا كالحَلَزون، وأعشاشُ اللقلقِ المستقرَّةُ الآن فوقَ أعمدةِ الكهرباء.

لقد تأخَّروا، في مثل هذا الوقت من كلِّ سنةٍ يكونون في الفناء، كانوا قد وزَّعوا من المحصول الذي جمعوه خمسةَ صناديقِ زبيبٍ حتى يبارك الله لهم، أمَّا السنةُ الماضيةُ فقد وزَّعوا عشرين صندوقَ عنبٍ، لقد كانت بادرةَ خيرٍ منهم، فليتقبَّلِ الله منهم، وفي السنة التي قبلَهَا أرسلوا بالضبط مجدداً خمسةَ صناديقِ زبيبٍ وعشرين صندوقَ عنب.

كان يحبُّ هؤلاء الأطفال؛ كانت أعينهم تملؤها السعادةُ حتى لو كان ما يأخذونه قليلاً، ذهبتُ إليهم في

مساءِ الخميس حتى أتحضَّرَ جيداً ليومِ الجمعة، كم كان مساءً رائعاً.. لقد انبهرت، شبابٌ في عمر الزهور صائمون في هذا الحرِّ الشديد، لم يردعْهم الطقس، قلت لهم مازحاً:

ـ وهل جاء شهر رمضان من دون علمي!

يستحقُّ هؤلاء الأطفال الجنة بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى، كانوا لا يزالون يذهبون إلى المدرسة الثانوية، كان بوسعهم أنْ يتجوَّلُوا في الشوارع وبيدهمْ زجاجةُ شراب ولكنَّهم صائمون، صائمون لأجل الله وحده، وبهذا الحرِّ.. وفي ربيعِ الشباب.. دمُهُم يغلي، بغليانِهِ تخرج قطراتُ نورٍ، كان يحبُّهُم، قال:

ـ كمْ أنت كبيرٌ يا الله!

كان يحبُّهم في الله تعالى، وكانوا هم السبب في تَقَرُّبِهِ إلى الله، كان يوزِّعُ تلك الصناديق لوجْه الله تعالى، وفي كلِّ سنةٍ يتبرَّعُ بخمسةٍ من الزبيب وعشرةٍ من العنب. لا يضيع شيءٌ في سبيل الله.

من الجيد أنَّه الصباح، فلنْ تكونَ حرارةُ شمسِ آب

الحارقة في ذِروتِهَا في هذا الوقت، تسعر الآنية صفحة السَّماء، تؤجج لهيب القمة. ااه من حرارة جهنم التي لن تُحتَمل، تحرق وتذيب عفيناً منها.

جاؤوا في السنة الماضية بشاحنةٍ صغيرة، وفي هذه السنة أيضاً قاموا بحساب الحصَّةِ التي سيقومون بتوزيعِهَا؛ خمسةٌ من الزبيب، وعشرون من العنب، خمسةٌ وعشرون صندوقاً، كيفما كانوا فستحملُهُم الشاحنة، لا يضيعُ شيءٌ في سبيل الله.

مع اقترابِ الظهيرةِ يتبخَّرُ الأملُ الأخضرُ في أوراقِ العنبِ الساري في عروقِ الليل السَّاكن، ويحِلُّ مكانَهُ الماءُ الذي انتُزِعَ منه كلُّ التَّعبِ معيداً للأوراقِ لونَهَا الأخضرَ.

يعمل العمَّال في الحقلِ بجهدٍ شديدٍ رابطينَ حولَ رؤوسِهِم الغطاء، يقطِفونَ العنبَ ويجمعونَه بالصناديق، ثم يضعون العنبَ الذي سيُجفَّفُ داخلَ ماءٍ ثم يعرضونه على صَوَانٍ خَرَسانيَّةٍ ليجفَّ جيداً.. كم هو بطيءٌ هذا الوقت!

فتحَ الراديو، الإشارةُ في مكانها.. وبدون تعيير أسلاكِهِ خرج صوتُ لحنٍ عذْبٍ منه، قصة أغنية، قصة

مغامرةِ عشقٍ في مدينة تشوكوروفا، عن فتاةٍ كانت تخلُقُ عُذراً في كل مرَّةٍ تريد فيها الذهابَ لرؤية حبيبها.

في ذلك اليوم ذهبتْ إلى الحقل وبيدها سلة مليئة بالتفاح لرؤيتِهِ، أخذتِ النساءُ تسألها:

ـ لمن كلُّ هذا التفاح؟! كم تفاحةً في السلة؟ لنرَ!

جاوبت الفتاةُ إجابةً خجولةً وجريئةً في نفس الوقت:

ـ وهل يُعَدُّ ما يعطيه الإنسانُ لشخصٍ يحبُّه!.

جاءتْ عيناه على العشرين صندوقِ عنبٍ التي تحت ظلِّ الشجرة، لماذا يا ترى؟ يخرج صوتٌ من الأسفل.

ـ حسين.

ـ تفضَّل يا أخي.

ـ كم صندوقاً قد جمعتمْ للتَّبرُّع؟

ـ من الزبيب خمسةٌ ومن العنب عشرون، لقد قلتُ لك ذلك سابقاً.

ـ حسين.

ـ تفضَّل يا أخي.

ـ كم صندوقاً بوسعك أنْ تجمعَ إلى أنْ تأتيَ الشاحنة اليوم؟ سوف نرسلهم جميعاً للأطفال.

قال بتعجُّبٍ:

ـ كم صندوقاً؟

ـ نعم؛ قم بجمعِهِمْ جميعاً دون أنْ تَعُدَّهم!

عاد صوتُ الراديو مشوشاً من جديد، ثم قال لحسين:

ـ وهل يُعَدُّ ما يعطيه الإنسان لمن يحبُّ؟!

ابتسمَ.. هناك صوتٌ قادم.

ـ أعتقد أنَّها الشاحنة.

ـ لا؛ واضحٌ من صوت العجلة أنَّها ليست شاحنتنا الصغيرة، إنَّها شاحنة أخرى لكنها كبيرة.

عَلَتِ ابتسامتُهُ وجهَه شيئاً فشيئاً، ثم قال آخر كلماتِهِ:

ـ لا يضيعُ شيءٌ عند الله.

# تِلْكَ الأَيْدِي

في ساعات الصباح الأولى، وبعدَ أنْ ينضجَ الخبز في المخابز، يقوم الخبَّازون بوضعِهِ داخلَ صناديقَ بلاستيكيةٍ تبقى محتفظةً بالحرارة في داخلها، ثمَّ تُوزَّعُ أمام الدكاكين واحدةً واحدة. تعجُّ الشوارعُ بالقطط التي تنتظر أشعةَ الشمس الدافئة بفارغِ الصبر؛ لتدفِّئَها قليلاً بعد ليلةٍ قاسيةِ البرودة.

على ساحل سينينه، كان الماء كلحافٍ أزرقَ في وسط سكونٍ عائم.

جهَّزَ الصيادون صنَّاراتِهِم استعداداً للصيد، بينما انطلقَ البقيةُ الذين يقومون بمساعدتهم بجمْعِ شباكِ الصَّيدِ في القوارب، وقاموا بتشغيل المحركات، نستطيع سماعَ صوتِ صدى المياهِ بوضوح وكأنَّه يقول: «إنني سيِّد نفسي، ولا أسمحُ لأحدٍ أنْ يتدخَّلَ بي!».

نسيمُ الهواءِ الباردِ يُحرِّكُ شعر السيد إحسان المتطايرَ من طرفٍ إلى طرف، يوجد الكثيرُ من العمل، وهناك الكثير من الأوراق التي تنتظر توقيعَه، ولكنَّ بَدْءَ اليومِ بممارسةِ رياضةِ الصباحِ شيءٌ جيدٌ أيضاً؛ المشيُ ببطءٍ أولاً في هذا الجوِّ النظيف ثمَّ زيادةُ السرعة بعدَهَا تدريجياً ليتصبَّبَ العرقُ مع زيادة سرعةِ الجري، ثمَّ العودة بعد ذلك إلى المنزل، واسترجاعُ النشاط بأخذ حمَّامٍ ساخن.. أووه!

بعد أنْ وصل إلى نهاية الدَّرْبِ الذي قطعه، قرَّرَ أنْ يأخذ قسطاً من الراحة، ويجلسَ على المقاعد التي في نهاية الطريق المنحني على اليسار.

التقطَ أنفاسَه وعاد، كان هنالك عاملٌ يقف متكئاً على الجدار، كان واضحاً عليه أنَّه ينتظرُ شخصاً ما من طريقةِ تحريكِهِ لساقيه اللتين تتأرجحان يميناً ويساراً كصنارةِ صيد.. يبدو أنَّه يمضي وقتاً لا أكثر، لربما كان ينتظرُ شيئاً، وقتاً، دقيقةً، أو شخصاً ما.

مرَّ من جانبه شخصٌ نحيلٌ، قصيرُ القامة، نظرَ في وجهه بتمعُّن، قفزَ من على الجدار واقترب:

ـ سيدي؛ هل أعرفكَ من مكان ما؟

بالطبع سيقف السيد إحسان! إنْ لم يقفْ ماذا سيفعل؟! بالإضافة إلى أنَّ أخْذَ قسطٍ من الراحة سيكون جيداً، بشرط ألا تطولَ استراحتُهُ فيبردَ عرقُهُ فيتألَّمَ ظهره لاحقاً.

ـ هذا ممكن.

بدا عليه أنَّه عامل.. يمكن أنْ نَعدَّه واحداً من عامة الشعب أيضاً.. لحيتُهُ المتروكةُ منذ ثلاثةِ إلى خمسةِ أيام، ملابسُهُ المهترئَةُ، قميصُ القطنِ الرَّقيقُ من كثرة الغسيل..

ـ ما هو عملك يا سيدي؟

ـ اااوه!. أخذ نفساً عميقاً..

بعد أنْ وضع يديه على ركبتيه:

ـ إنني عامل.

ـ هل تعمل في الشحن؟

رفع حاجبيه وقال:

ـ إنْ كنت تقصدُ أنَّ الشحنَ هو العمل مع الشاحنات، فنعمْ..

المعاناة مع السائقين والشاحناتِ كلَّ يوم، الطُّرُقُ الطويلةُ والطُّرُقُ المعبَّدةُ، النوم في النهار والخروجُ في الليل، ثم التوقُّفُ في المطاعم التي على الطريقِ السريع المليءِ بعوادمِ المحركات.

ـ في الشحن البحري؟ أليس كذلك؟

ـ نعم؛ في الشحن البحري.

عمَّال الشحن البحريِّ يمضون معظمَ وقتِهِم بين السفن والقوارب والمرافئ.

كان الرجل كمن يبحثُ عن بعضِ الأشياءِ المدفونةِ في زاويةٍ ما في ذاكرته، يبحث عن صورةٍ مثلاً، أو مشهدٍ من شاشة، أو برنامجٍ رياضيٍّ يأتي ويذهب أمامَ عينيه، ابتسامة، حديثٌ لائق، صوتٌ هامس. لا يستطيع الإمساكَ بأيٍّ منها:

ـ إنني أعرفك جيداً، ولكنني لا أستطيع التَّذكُّرَ الآن.. من أين؟

ـ ربَّما من التلفاز.

ـ من التلفاز؟! كلا.. كـ.. يا إلهي! أنت هو؟

ـ من؟

ـ والله أنت هو، أنا متأكد.

في لحظتها شعر ببرودةِ نسيمِ الصباح يتسلَّلُ بين أطرافِهِ، قام بحركة إحماءٍ لتُشعرَهُ بالدفءِ قليلاً ثم قال:

ـ ماذا تقصد بقولك هذا ومن أكون؟

ـ أليس أنت السيد إحسان الذي يعطي الأطفالَ مِنَحاً دراسية؟

لم تكن هنالك ردَّةُ فِعْلٍ تليق بذلك أكثرَ من التَّبسُّم.

الابتسامة مثلُ إلقاءِ السلام.. الابتسامةُ كأنَّك تفتحُ قلبك.. تفتحُهُ وتقول: خذ هذا لك..

ـ الأطفال؟ ها؛ نعم هذا صحيح! ولكنَّ ذلك ليس بشيءٍ يُذكَر!

بقميصِهِ المهترئ وببهجةٍ غامرة قال:

ـ أعطني يدَكَ لأقبِّلَها يا سيدي!

انحنى ليمسك يده فقام بسحبها، هو يسحب وذاك يسحب. لم يستطعْ تقبيلَهَا!

ـ لا؛ ماذا تفعل؟!

ـ إنها كالعسلِ يا سيدي، هذه الأيادي تُقبَّلُ من أجل الله!

ـ لا.. لا يجوز!

ـ يجوز! أقسم أنَّني سأقبِّلها!

شكَّ السيد إحسان بأمرِ الرجل.

ـ مستحيل يا أخي! اذهبْ لشأنك!

ـ إذا لم تعطِنِي يدَكَ لن ابتعدَ عن طريقك!

ـ ذلك مستحيل، هل أنتَ مجنون! لا يمكن يا أخي!

حتى تلك القططُ المنتشرةُ التي كانت تلعبُ في الشارع لتدفئةِ برودة جسدِهَا قد توقَّفتْ لتنظرَ إليهما.

ـ أقسم أنَّني سأقبِّلُها، لقد أقسمتُ.. لا يمكنني التراجع.

اقتربَ رجلٌ إليهما مبتسماً، كان يراقب جدالَهُما من بعيد:

ـ يا سيد هذا شخصٌ مجنون، لا تضيِّعْ وقتَكَ معه، إنْ لم تفعلْ ما يريد لن يتوقَّفَ، أعطِهِ يدكَ ليقبِّلَها وإلا فلن تستطيعَ التَّخلُّصَ منه، ليس هناك مهرب.

احتارَ السيد إحسان في أمرِهِ، ماذا يفعل؟ لقد فهم أنَّ هذا مجردُ إطراءٍ لا أكثر، نعم إنَّه إطراء، نظرَ أولاً إلى البحر ثم إلى السماء، وامتلأت عيناه بالدموع.

كان الرجل يقبِّلُ يده تارةً ويعود خطوةً للوراء، ينظر إليه من بعيدٍ وكأنَّه تحفةٌ فنية.

تذكَّرَ السيد إحسان حينَها آخرَ فيلمٍ شاهده، وكيف شعر بإعجابٍ شديدٍ تجاه البطل..

# صَوْتُ أَجْنِحَةِ الفَرَاشَاتِ

من فمِ الإبريق المزخرف بالزهور خرج خطٌّ رفيعٌ من البخار وانضم إلى روحِ الغرفة، الأريكَةُ ورديَّةُ اللون، ضوءُ شمسِ العصرِ المتسلِّلِ من بين فتحاتِ ستائرِ التُّولِ المزخرفةِ مشكِّلاً لوحةً زيتيةً خلابةً في كلِّ مكان، على السَّقْفِ كانت تقف فراشةُ العثِّ بنيَّةُ اللون كأنَّها ميتة؛ وكأنَّها بقيتْ من الشتاء ولم تتحركْ من مكانِهَا طوالِ أشهر.

من فوق النظارات؛ نظرتْ عينانِ ذاتا خمسةٍ وخمسين عاماً، ولكنَّها تُشعِرُ بأنَّها لا تزالُ في الخمس وثلاثين، وقالت:

ـ هل تريدين الشاي؟

بابتسامةٍ خفيفةٍ جداً بين الـ «نعم» والـ «لا»:

ـ نعم؛ من فضلك.

الماء المنسكبُ إلى قعر الفنجان الخزفي كالدَّوامةِ المنحنيةِ يلمع في آخره؛ شكَّلت رغوةً خفيفةً على سطح الشاي عند سكبه بعجلة.

ـ هل رأيتِ أين وضعتُ الثياب التي أحضرتُها من فوندا؟

صيحاتُ الأطفال الذين يلعبون بالكرة تعلو؛ في نهاية المباراة سنذهب إلى شرب الشاي. حسناً؟

ـ حسناً.

ـ الجميع أحضرَ مالاً لشراء البسكويت، أليس كذلك؟

ـ إذا أحضر موسى فهذا يعني أنَّ الجميع قد أحضر أيضاً.

ـ انظرْ.. ارمِهَا هنا بين قدميك.. لا ترمها هناك.

ـ نقراتُ الفنجان على الطبق.. طعمُ شاي البرغموت المرُّ.. أووووه.

ـ نعم للأسف! لقد اقشعرَّ بدني! قمتُ لأصلِّي صلاةَ الضحى، سبَّحتُ قليلاً ثم جلست أمام النافذة؛ من جانبٍ

كنت أقولُ «سبحان الله»، ومن جانبٍ آخر كنت أنظر إلى الشارع.

وفجأة دخل من بداية الشارع وخرج من نهايته بسرعة شيءٌ مهلهلٌ. هل من الممكن رؤيته؟ الإنسان لا يلفت انتباهه إلا ملابسُ الناس وماذا يرتدون.

كلاهما ابتسمتْ ابتسامةَ سخرية.

نظرتْ إحداهما إلى الأخرى بنظرةٍ مهينة، أما الأخرى فبنظرةِ عدمِ إعجاب.

ـ يجب أنْ تتصرَّفي معي بأدب!

ـ والله!

كان في الطريق عربةٌ تعنُّ مخرجةً غازاتٍ مميتةً..

ـ أسفلُ عينيكِ مرهقٌ؛ هل أنتِ مريضة؟

حجبتْ غيمةٌ عن شمسِ العصر نورَهَا، وأصبح داخل الغرفةِ مظلماً فجأةً بسبب إغلاق الستائر.

ـ لا يا عزيزتي؛ أنا بكامل نشاطي ولله الحمد.

ولكنها تصرُّ:

ـ هلّا نظرتِ إلى المرآة، يبدو وجهك شاحباً.

ـ من الجوع غالباً.

ـ اقتربَ الأطفال من إنهاءِ مباراتهم.

عندما توشك المباراةُ على الانتهاء يزيدُ صدى أصواتِ الأطفال حدَّةً.

ـ إنجن.

ـ انظر! الرجل سيحطم الرقم القياسي.

ـ إنني جائعة؛ لا أصدِّق نفسي! استمريت في إعطائك الشاي فقط!

ـ لا تقولي هذا؛ لقد نويتُ الصيام لبضعةِ أيام ربَّما من ذلك، ولكني تناولتُ الفطورَ هذا الصباح فلا تقلقي؛ إنْ كنتُ جائعةً سأقولُ لك، وهل نحن غرباء؟

وضعتْ قطعةً من الكيك الإسفنجي على طبقٍ جميل.. شربوا الشاي معه وأخذهم الحديث.

ـ والله إنكِ تقسين على نفسك قليلاً، أقسم لك ستدخلين الجنة، ولكن احجزي لنا مكاناً أيضاً هناك لا تنسيني!

ـ أستغفرُ الله، ماذا تقولين؟! من أنا لأكون وسيلةً لإدخالكِ الجنة؟!

بدأتْ تأكل قطعةَ الكيك وتقسمُها بالشوكة..

ـ لا تقولي ذلك يا فتاة، أنت تقومين بأداءِ الصلوات الخمسِ وتصومين، أمَّا عن الحج فقد ذهبتِ عدة مراتٍ مع أخيكِ، إنْ كان كلُّ ذلك لا يكفي فقد ذهبتِ إلى العمرات أيضاً، إذا أنتِ لم تدخلي الجنة فمن سيدخلها!

انظري إلى الشاي مثلاً؛ عندما يبقى في منتصفِ الفنجانِ هل يبردُ، أم يبقى دافئاً، أم يبقى على حاله؟

تقفز فراشةُ العثِّ وتستقرُّ على طرف الأريكة.

ـ لقد كنتِ إنسانةً متواضعةً ولكنَّكِ لا تدعينني وشأني، كلما سنحتْ لكِ الفرصةُ تقومين بمدحِي، لا داعي للمبالغة، كلُّ ما هنالك أنَّني أحاولُ أنْ أكونَ أفضل.

فرَدَتْ فراشةُ العثِّ جناحيها وأغلقتْهُما ثم عادت لفتحهما وإغلاقهما هكذا..

ـ اااه لو تعلمين ما هي مكانتك عندنا، نحن نَعُدُّكِ قدوةً لنا، هل تعلمين ذلك؟ مولا آية سلمى.

ـ يا فتاة! أنتم تقودون المرء ليفقد صوابه!

ـ لماذا؟

ـ ستجعلينني أشكُّ في تواضعي.

ـ قولي ما تريدين قولَه لكنَّك مختلفةٌ في نظرنا.

وجدتْ فراشةُ العثِّ مكاناً مناسباً لها لتضعَ بيضتَهَا في النهاية، ثم أغلقتْ جناحيها بثبات.

ـ انظري عند الصيام ما الذي يجب فعله؟ يجب التزيُّن.

ـ ماذا؟

ـ نعم، التزيُّن حتى لا يبدو عليكِ تعبُ الصيام والجوع.

ـ لا أصدِّق ما أسمعه.. هل أنتِ جادَّة؟

ـ أنا أضعُ القليلَ من الزِّينة عندما أكون صائمة.

ـ من الجيد أنَّكِ قلتِ ذلك، فلْأضعْ أنا أيضاً، ولن يعرفَ أحدٌ أنني صائمة، أليس كذلك؟

ـ بلى.

ـ ولكنْ عندما نفعلُ ذلك ألا نكونُ قد دخلنا في فعل المحرَّمات؛ أنْ نلفتَ النظر؟

ـ في الحقيقة لم أسمعْهَا من شيخٍ في برنامج، بل أنا من قمتُ بتأليفِهَا.

ـ بقيتُ بين المطرقةِ والسنْدَان (احترت في أمري)، ما الذي يجب علينا فعلُهُ يا ترى؟

ـ لدي فكرةٌ مذهلة!

ـ ماذا وجدتِ أيضاً يا فتاة.. ما هي الفكرة؟

ـ لنقل هذا لجميعِ أصدقائِنا، فَلْيَعْتَنَيْنَ قليلاً بأنفسهنَّ لكي لا نظهر أنَّنا كنَّا صائمات، نخرج إلى الطريق ونتمشَّى في الشارع.. ماذا قلتِ؟

ـ والله إنها فكرةٌ رائعة..

بعد أنِ انتهتْ مهمة فراشة العثِّ صفَّقَتْ بجناحيها الرقيقين وهي في سعادةٍ غامرة، وذهبتْ للتجوُّلِ في السماء للأعلى وللأسفل، يميناً ويساراً، لم يكن يُسمَعُ صوتُ جناحيهَا أبداً، في الحقيقة لا يوجد صوتٌ لأجنحةِ الفراشات.

# حُبُّ التَّعَلُّمِ

رغم طرْقِ الباب للمرَّةِ الثانية، إلا أنَّه لم يكن هناك أحدٌ ليفتح، كانت هناك رائحةٌ غريبةٌ عند السلالم، رائحةُ طعامٍ أو لحمٍ فاسد، كانَ يريدُ الدخولَ ليتخلَّصَ من تلك الرائحة، ولكن لا أحد ليفتحَ له الباب، رائحةُ قمامةٍ تأتي من أمام الباب، أصبح تَحمُّلُ كلِّ ذلك صعباً.

سمع قرقعةَ صوتٍ قادمةً من الداخل، فُتِحَ الباب.

ـ اااه ما هذا؟! يا إلهي!

كانت الرائحة قويةً جداً، وضع يده على أنفه.

الشخص الذي فتحَ له الباب كان رجلاً أشقرَ اسمه رفعت، رحَّبَ بالضيف وأدْخلَهُ وهو مبتسمٌ وخجولٌ:

ـ تفضَّل أهلاً وسهلاً. آسف على الرائحةِ الكريهةِ في البيت، لا تؤاخذني.

عجباً! هل يدخل إلى الداخلِ أم يعود من حيث أتى؟!

هل ستتحمَّلُ معدتُهُ تلك الرائحةِ الكريهةِ يا ترى، رائحتُها كرائحةِ سلةِ القمامة التي بجانبِ محلِّ اللَّحامِ على طريق المدرسة. قلبتْ معدتُهُ، لا يجوز ألا يدخلَ الآن، عيب، ماذا يفعل! دخل أخيراً.

دخل واضعاً يده على أنفه، بنظرةٍ مقزِّزَةٍ نظر إلى رفعت، هل هو يا ترى المسؤول عن هذا الوضع؟ دخلا إلى الصالون، وأكمل ترحيبه.

ـ لقد شرَّفْتَنَا بمجيئِكَ هذا، أخبرْني كيف المدرسة؟

كان يشعر بالفضول حولَ مصدرِ تلك الرائحة الكريهة، ولكنَّه لم يستطعْ أنْ يسألَ هذا السؤال هكذا على الفور، كانت هذه الرائحةُ تفوح من كلِّ طرف، كما أنه لم يستطعْ أنْ يمنعَ نفسَهُ عن السؤال أكثر؛ كان عليه أنْ يسأل.

بدأتْ معدتُهُ تؤلمه، لقد اعتذر منه رفعت على الرائحة الكريهة عند دخوله، إذاً يمكنه أنْ يسأل، كيف عليه أن يسأل؟ هل يقول: «ما هذه الرائحة؟» لا.. لا يجوز هكذا، «خيرٌ إنْ شاء الله؟! هل هناكَ جثَّةٌ في الداخل؟»

أيضاً مستحيل. لم يكن مقرَّباً منه كثيراً حتى يسأله هكذا سؤال.

في اللحظة التي أزال يده عن أنفِهِ لاحظَ شيئاً، بدل أنْ يضعَ يده هكذا كانَ يستطيعُ ببساطةٍ سؤالَه عن سبب الرائحة، أليس واضحاً كفاية من تصرُّفِهِ هذا أنَّها تزعجه؟!

ليس وقتُ التَّصرُّف بأدبٍ الآن، يتوجَّبُ عليه سؤاله، فتح فمه ليسأل، فنظر إليه رفعت وكأنَّه فهمَ ما يريد قولَه، وقال له:

ـ تعال معي.

قام وتبعه.

دخلا إلى الغرفة التي على اليسار في الممر، كان مركزُ الرائحة فيها، لم يكنْ شيئاً يُحتمَل.

عندما أنارَ رفعت اللمبةَ من يدها المحمرة ظهرت الغرفة كورشةِ رسم بالألوان الزيتية، كانت هناك طاولةٌ على اليمين مغلَّفةٌ بأوراقِ الجرائد، في منتصفها صينيةُ فرنٍ عليها تنكةٌ رماديةُ اللون معبأةٌ بسائلٍ إلى نصفها، غُلِّفتْ من كلِّ طرفٍ بلفائفِ الورق، وقماشٌ مطليٌّ على

الأريكةِ، وعلى سطحِ الطاولة، حتى على الأرض، وعلى مكيف الهواء، في كلِّ مكانٍ كان هناك قماشٌ مرسومٌ عليه.

أخذ ينظر إلى الأوراقِ في الأطراف بدهشة، على النُّقوشِ، وعلى وردةِ القُرُنْفُلِ بينها، على الألوانِ وعلى التَّناغمِ فيما بينها.

كان يثيرُهُ الفضول دائماً في معرفة كيف يُنجَز، وكيف يُرسَم بماءٍ ملون، كيف تتشكَّلُ تلك الأشكالُ على الورق، جاء الوقت المناسب لمعرفة كلِّ هذا.

يستطيع أنْ يسكبَ ما يريد ويجرِّبَ كيفما يريد، امتلأ داخلُهُ بالجزع، لقد اقترب كثيراً من معرفتِهِ، حتى إنه لم يعد يشتمُّ الرائحة.

بعد أنْ طالتْ دهشتُهُ وعاد إلى وعيه نظرَ أمامَه؛ كانت هناك طاولة مليئةٌ بالألوانِ لم يعرفْ بأيٍّ منها يبدأ.

بقي فمُهُ مفتوحاً لوهلةٍ من الزمن هكذا كالمجنون، بعد ذلك قطعَ عليه رفعت سلسلةَ أفكارِهِ قائلاً:

ـ أرأيت؟! هذا هو سبب الرائحةِ الكريهة، أقوم بالرسم هنا.

قال الضيف وهو داخلَ دهشةِ جمالِ الرسوماتِ والألوانِ وأشكالِهَا:

ـ كم هو جميلٌ رسمُكَ!

من يسمع هذا الإطراءَ المتواضع يظنُّ أنَّها قطعٌ رُسِمت من غيرِ أيِّ تنظيمٍ أو تخطيطٍ من قَبْل بشكلٍ مبعثر.

تراجعَ وقطَّبَ حاجبيه.

ـ العفو لم أقصدْ ذلك. لقد رُسِمَتْ حقاً بطريقةٍ جميلة.

كان الضيفُ سارحاً بعقلِهِ في عالمٍ آخر يفكِّر في بعضِ الأشياءِ التي سيفعلُها وعيناه على جمالِ وروعةِ اللَّوحات الزيتية.

ـ ماذا تقصد؟ لمن هذه الطلبية؟

ـ أيُّ طلبية؟

أجابه وهو داخل سعادةٍ غامرةٍ، وكأنَّه رأى حلماً جميلاً وعيناه لا تبتعد عن العدسة:

ـ لقد قلت: «إنَّها رُسمت»..

ـ ها.. نعم كم هو جميلٌ ما قد رُسِمَ! وكأنَّها رُسمَتْ بيدِ خبير، من نحن ومن هو، لقد أنقذ الله آدم من فعل الخطأ.

ـ على أيَّة حال؛ أرجوك علِّمني كيفية رسمِهَا.

ـ سأشرح لك فقط، إذا لديك استعدادُ طالبِ العلم فيجبُ أنْ تثابر!

ـ ماذا تقصد بطالبِ العلم؟

ـ إذا أردتَ أنْ تتعلَّمَ فأنتَ طالبُ علم.. يعني تلميذ.

ـ ها.. وأنا ظننتُهُ اسماً!

بدا عليه أنَّه حاضرٌ للشرح.

ـ انظر الآن، يُقال عن الماء في القارب «كيتره»، عبارةٌ عن خليطٍ كثيفٍ مكوَّنٍ من مزيجِ عدَّةِ مواد مع بعضها، موادَّ نباتيةٍ وحيوانيةٍ، مثلاً هناك محلولٌ نباتيٌّ خاصٌّ وبنكرياس حيوان.

ـ بنكرياس! هل تقصد العصارةَ الصفراء؟!

ـ نعم؛ العصارةَ الصفراءَ للبقر، يعني نصنعُ فوقَ الكيتره عالماً من الجمال، هذا مثالٌ لكيتره.

ـ أكاد لا أصدِّقُ ما أسمعُه!

ـ نعم؛ انظر الآن سوف أضعُ القليلَ من الألوان هنا، وفوقَهَا القرنفل، وبجانبها واحدةٌ أخرى أيضاً، أصبحتْ لدينا لمستُنَا الخاصَّة، أليست برأيكَ مؤثرةً؟

ـ مدهش، لقد قمتَ بذلك بفرشاتين.. جميلٌ ما رسمتَه حقاً!

ـ عدْتَ إلى خطئكَ من جديد! ماذا قلتُ لك؟!

ـ عفواً.. جميلٌ ما قد رُسم.

ـ الآن أعطني تلك الورقة، انظر! الورقةُ هي النَّفْس؛ أعني شخصيتَنَا، شخصيتُنَا تغطَّى بهكذا جمال، على الغطاء يكون القارب، وعلى القارب يكون الماء، وعلى الماء يكون الجمال.

هذه ورقةٌ خاليةٌ من أيِّ رسم، كنْ أنتَ فقط، لا تكنْ متكبِّراً، إذا أصبحتَ متكبِّراً وظننتَ أنَّك تستطيعُ فعلَ كلِّ

شيءٍ فستكون مخطئاً، وسيتمزَّقُ غطاؤك، كما يغطِّي الكافرون قدرةَ الله، أليس كذلك؟

ثم بعد ذلك يلفُّه بسلسلةٍ من الآيات.

ـ ما هي؟

ـ سأقولُهَا بعد أنْ تنتهيَ من إخراجِ الورقةِ من المحلول.

ـ متى؟

ـ حان الوقت.

أخذ رفعت بيده عصاةَ خشبٍ قصيرةً، ونقَعَهَا من زاويةِ القاربِ إلى الأسفل.

فلْنُزِل الـ «أنا» من زاويةِ الورقة، شخصيتكَ جعلت من الـ «أنا» دخاناً، يمكن أنْ تعدَّ العملَ الجماعيَّ من أدواتِهَا أيضاً، انظر الآن إلى الزاوية ونحن نحاولُ إخراجَ الغطاءِ، يعني شخصيتَنَا. فلْنقرأْ عِبْرتَنَا ونحن نخرجها: «أخرجْ نفسَكَ من هنا واجعلْ منها سُمّاً للجرح».

سحبَ رفعت الورقة من المحلول بسرعة خبيرٍ متمرس، مسكَهَا من طرفيهَا من عرضها، ظهرت الأشكال

على وجهها، أصبح الضيفُ في حيرةٍ من أمره! هل يُعجَبُ باللوحة أم بالعِبْرةِ منها، إنَّها عبرةٌ رائعة «أخرجْ نفسك من هنا واجعلْ منها سُمّاً للجروح» واللوحة أيضاً جميلةٌ جداً، ورقة الشخصية؛ الورقة تغطي الرسم، يعني ستارةَ حالةِ الشخصية. لقد أصبحت ضحيَّةَ فنِّ الجرحِ هذا وجمالِهِ..

ـ واااو أحسنتَ! عملك رائع!

ـ لقد أخطأتَ مجدداً.

ـ العمل رائع.

ـ لا تنحرفْ.

ـ لقد أنقذَ الله آدم من فعل الخطأ.

ـ صحيحٌ ما تقوله.

# أَيْنَ الْيَنْبُوعُ

صارت ثمراتُ الدُّراقِ والخوخِ على الأغصان كالرَّغوةِ مع الوقت، في هذه الأيام تهافتتْ عليَّ خيباتُ الأمل، لا تسألوا، كأنَّ جسدي يذكِّرُنِي بجدِّي، كان عندما يأتي تيارٌ من الهواء يقول لي: «لا تفتح النافذة»، ولكنْ يجب أن تُقطَفَ ثمراتُ الخوخ الفرنسي الأبيض، وأنا بقيتُ في التيار مما يعني أنَّ كلَّ جانبٍ منِّي كان يسقط قطعةً قطعة.

تجتاحني رغبةٌ في الثأر على ما أخذَهُ منِّي، روحي قاسية، أشعرُ أنَّ داخلي جافٌّ قاحلٌ، يلزمني من أجل تغذيةِ روحي عينٌ وينبوعٌ. ينبوعٌ يظهر من منحدراتِ الوادي الجرداءِ، ويجعل ما حولها أخضرَ.

في هذه الأثناء لم يكن لديَّ أيُّ رغبةٍ في المدرسة أيضاً، كنتُ أسمع صوتَ اقترابِ الامتحانات النهائية،

العراك مع تلك الغيمةِ السوداء مجدَّداً، عاصفةٌ مظلمةٌ تقترب وتقترب.

يلزمني ينبوعٌ إلى تلك الصخور التي تصرخ محترقةً من حرِّ الشمس، ينبوعٌ يعطي تلك الحصى حياة..

شاحناتُ الخبز تمرُّ الآن على الدَّكاكين تتركُ صناديقَ الخبز.

منذ قليلٍ أُضِيءَ المكان. «إذا خلدْتُ للنوم في هذا الوقت ما الذي سيحصل؟!» ولكن اتفقتُ مع أورهان، الرجل لا يرجع عن كلامِهِ، أليس كذلك؟

مسألةُ الرُّجولةِ هذه ورثتُهَا من الأخ أكرم؛ عندما يكون كلُّ شيءٍ على ما يرام، أو لا يكون على ما يرام ستمشي السفينةُ دائماً، كان يقول:

«التوقُّفُ كلمةٌ لا تليق بالرُّجولة»، وكان يقول أيضاً: «إنه لا يوجد في قانونِ الرُّجولةِ تجوُّلٌ من شارعٍ لآخر كالشباب غير النافعين، الثرثرةُ تعيقُ الحركةَ يا أخي»، و«عند دخولِ شهرِ الصيام فلْنرِحْ قلوبَنَا قليلاً». كان يقول

ويقول. . «مقدارُ الجهدِ والضغطِ الذي يأتي علينا لا يجعل منَّا أناساً أفضل، أليس كذلك!».

لقد أهملنا أيضاً الاتصالَ والسؤالَ في الفترةِ الأخيرة، وكأنَّ هنالك طنّاً من الأوجاع فوق جفوني، يا ترى هل سأنجح في أخذ قيلولة؟! سوف تغمضُ عيناي، ما هذا يا أنت؟! ومَن الذي نادى باسمي من النافذة؟ يا إلهي ماذا يحدث لنا؟ إننا في الطابق الرابع! هل هذا أنا؟ مقطِّبُ الحاجبين، مجوَّفُ العينين؟!

نسيجٌ متشابكٌ من فوقه، يظهر في رأسِهِ وجهٌ بسيط، هل هذا هو؟ إنه يبتسم. انظر! إنه يسأل عن شيء ما.

ـ أين الينبوع؟

ـ أيُّ ينبوع؟ وكم ينبوعاً يوجد؟

ـ ماذا تعني؟

ـ عفواً!

لم أستطعْ أنْ أفهم!

ـ أين الينبوع؟

يبتسم، هذا ليس سؤالاً، من الواضح أنَّه يعرف

إجابته، يريد شرْحَ شيءٍ ما. ولكن ماذا يجول بعينيه الملتهبتين؛ الأرض، الجدران، لوحاتُ الخطِّ الجميل، المكتبة... يقف آخرَ شيء عند الدائرتين المضيئتين اللتين في المكتبة، يتقدَّمُ، يُنزِلُهُمَا من على الرَّفِّ ويبتسم مجدَّداً، يمدُّ إحدى يديه ذاتِ الجلدِ الأحمرِ اللونِ إلى الرَّفِّ، يتمسك ويسحب نفسَهُ للأعلى، يبحث ويعيد ما بحث فيه عن كثبٍ في تلك اللحظة، ضوءٌ متفرِّعٌ على بحيرة، شيءٌ غامضٌ هناك حدث..

مثل الرُّوحِ التي يبعثُهَا المطرُ لحظةَ التقائِهِ بالأرض، مصدرُ رائحةٍ مذهلةٍ فوَّاحةٍ تتلاشَى على الفور، ولكنْ يبقى في أُذُني أنينُ تلك الجملة: «أين الينبوع؟.. أين الينبوع؟.. أين الينبوع؟».

# القَصْرُ

من جهةٍ يقول لي: «تعالَ معي»، هذا البحرُ المالحُ المليءُ بالطحالب، ومن جهةٍ أخرى ضجيجُ موقف الساحة جاء إليَّ من نسج خيالِ الأساطير، وعليه رُشَّت الألوانُ المائية.

وكأنَّه يقولُ: «انظر إليَّ» في إطلالةِ القصرِ الساحرة، ووسط كلِّ أصواتِ السيارات، وصريخ البائعين المتجوِّلين في الشوارع، وقذارةِ الطين الأسود، وتنَكِ الجبنةِ البيضاءِ، وأدْخِنَةِ السجائر، وصوتِ عطسةِ رجل.

جاء رجلٌ إلى جانبي عاقد الحاجبين، كان يرتدي قبعةً سوداء.

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام.

ـ من أين أنت؟

ـ من هناك.

ـ هل منها نفسها أو من الريف؟

ـ لا؛ من ريفها.

ـ وماذا تفعل هنا؟ هل جئت لزيارةِ مريضٍ أم للتَّنزُّه؟ بالمناسبة، ما اسمك؟

ـ إنجين، وأنت؟

ـ مظفر، وماذا تعمل؟

ـ متنبئ!

ـ وماذا يعني هذا؟

ـ يعني أتنبَّأ للزبونِ بشيء، وأعلِّقُه على العشبِ في الساحة، وأخبرُهُ على الفور إلى أين ستكون وجهته، كاستامونو، دوزجة، أنقرة، هل فهمت ما أقصده؟

ـ نعم.. ما كان اسمك يا أخي؟

ـ إنجين.

ـ انظر يا إنجين، لقد تكلَّمْنَا سويةً هنا، ولكنِّي في العادة لا أتكلَّمُ مع شخصٍ لا أعرفُ اسمه، إذا كنتُ سأتكلَّمُ مع رجلٍ فيجب أنْ أخاطبَه باسمه، أليس كذلك؟

لهذا سألتك، هل ترى كيف يتحدثُ هؤلاء الرجالُ مع بعضهم لساعات، يأتي كأسُ شايٍ ويذهبُ كأسٌ آخر، وعندما يَحِلُّ الصمتُ قليلاً يمسكون بهواتفهم، ويقول: ما اسمك بدون أيِّ خجل، ما هذا؟! إلى الآن كلُّ ما قلتُهُ كان كلاماً فارغاً. الكلام من ذهب، هل تبيعُ الذهب في الشوارع؟ الكلمةُ ثمينةٌ في مكانها، وهل سيعرف الشابُّ إغلاقَ فمه؟ حقّاً إنِّي لا أفهمُ على الناس، إذا سألتني لماذا؟ سأخبرك:

في الحقيقة الإنسانُ يعني القلب أليس كذلك؟

ـ بلى؛ صحيح.

ـ ولكن أليس مثيراً للدَّهْشةِ كيف يُهينُ الإنسانُ قلبَهُ؟

برأيي نعم، وكثيرٌ أيضاً. فلْنأخذ مثالاً عن القرب من القلب؛ لديَّ سؤالٌ لك: أيُّهما نقولها أكثر: قريبٌ من القلب؟ أم بعيدٌ عن القلب؟

ـ بعيدٌ عن القلب، أليس كذلك؟

ـ لأن الأشخاص البعيدين عن القلب كُثرٌ بيننا، سأعلِّمك درساً في الحياة؛ ماذا كان اسمك؟

ـ قصر.

ـ اه قصر! بفنائِهِ الأمامي الأخضر، وأشجارِهِ المُعمرةِ، وأعمدةِ قصر «توب كابه» التي تبدو من السماء على شكل أقلامِ الرصاص..

ـ ماذا كان اسمك؟

ـ إنجين.

ـ عزيزي إنجين، فكِّر معي قليلاً، لقد مرَّ عليك الكثيرُ في حياتك غالباً، ولكنَّك لا تستطيع أنْ تعرفَ عقلية كلِّ شخص. من أين لك أنْ تعرف؟! حسناً دعني أسألك، من أين ستعرف أنَّهم سيغرقون في شربة ماء؟ هل هذا واضح؟

ـ طبعاً لا يمكننا التنبؤ بذلك، في هذه الحالة ما الذي يتوجب علينا فعلُهُ؟

ـ يجب ألا نبيعَ وجدانَنَا بخمسةِ قروشٍ أليس كذلك؟ عفواً لقد نسيت اسمك مجدَّداً.

في وسط ضجَّةِ مواقفِ الساحة تصل إلى مسامعي أغنيةٌ قديمة: «أمامَهُ شجرةُ زيتون وخلفَه جرف». في فصل الخريف من سنة (1946م) ماذا أكون أمامَ أشجارِ

الزيتون؟ ماذا أكون؟ أمام أغصانها ماذا أكون؟ لمْ نرمِ بكلامنا في طريق الجرف، فماذا أكون، غريبٌ حقاً من أين جاءت هذه الأغنية الآن، لقد ارتاح داخلي.

ـ ماذا كان اسمك يا صديقي؟

ـ لا تؤاخذني لقد سرحت... إنجين.

ـ أصغِ عزيزي إنجين إلى ما سأقوله: لم يبقَ هناك شخصٌ قريبٌ من القلب، أين هم أصدقاء طفولتِنَا؟ لم يعدْ يوجد منهم أحد! الذين يضحُّونَ بحياتهم في سبيلِ أصدقائهم. هل رأيتَ كيف استمرَّ هؤلاء الرجال في حديثهم، وبدون حتى أنْ يُعرَفوا من أين كلٌّ واحدٍ منهم، أنا آتي كلَّ يومٍ إلى هنا وأبيعُ رجلاً في موقفِ الساحة، من نظرتِهِ أعرفُ كم قيراطاً يساوي، كان هناك شابان ينتظران الباص يتهامسان، فليذهبا لا يساويان شيئاً. قلت بداخلي هذا الذي على اليمين لم أستطعْ رفْعَ عينيَّ عنه، فلْأرمِ بالطُعْم وأرى ما سيحصل، هل سيبتلعه؟

ـ كم شخصيتُكَ جميلةٌ أيُّها الشاب! كم أنتَ قريبٌ من القلب.

ثم نظرتُ إلى الشخص الذي معه وقلت:

ـ أحسنتَ في اختيارِكَ، هكذا صديقٌ لا تجدُهُ بسهولة.

ـ لقد كان اسمك أحمد أليس كذلك؟

ـ إنجين.

ـ ها.. إنجين؛ ماذا كنت أقول؟.. نعم لقد وجد صديقاً لنفسه، لماذا قلت ذلك أخبرني؟

ـ لا أعلم.

ـ كيف نجد الثَّقْبَ في دولابِ السيارة المثقوب؟

ـ يا سيد مظفَّر من أين خطرَ على بالك دولابُ السيارة الآن؟ حسناً كيف نجده؟

ـ دعني أشرح لك، هذا سيكون درساً لك، ستضغط أولاً على الدُّولاب ليخرج الهواء، ثم تصغي جيداً لصوت الهواء من أين يخرج، لقد ضغطت وسمعت صوتاً، سيعجبك ما قاله.

ـ وماذا قال؟

ـ بضعُ لغلغاتٍ، لقد فهمت أنَّه غيرُ مقرَّبٍ من أصدقائه. كان اسمك مصطفى أليس كذلك؟

ـ إنجين.

ـ انظر إنجين إلى هذين الشخصين مجدداً، يتحدَّثان بانسجامٍ شديد، تلتقي أعينهما ببعضها البعض، في حين أنَّهما لا يعرفان اسم بعضهما! كم هو غريبٌ، أليس كذلك؟! ألم يؤثِّرْ فيك قربُهُم من بعض، بالتأكيد سيؤثر، محيي الدين أليس كذلك؟

ـ إنجين، إنجين، اااااانجبن.

ـ إنجين هل تعلم لو أردتُ حقاً أستطيع الثرثرة، حنكي قويٌّ ولكنَّني أحكي الصحيح، في كلِّ وقتٍ أحكي قِيَماً، لو بكيتُ أمامك سأكون كحكايةِ مطرٍ بجانبك، ولكن ليس لدينا حكاية الذئب، لقد كذبَ علينا أجدادُنَا أليس كذلك؟ كيف ستخاطب أحداً إذا لم يكن عقلكَ في رأسك، يجب أنْ يكون الشاب شجاعاً، أوَّلُ قاعدةٍ للشجاعة ألَّا تتحدَّثَ بسلبيةٍ متعصِّبة، والثاني أنْ تكون قاسياً. لن تكون كالبقدونس في كلِّ كلام.

ماذا كان اسمك؟.. إنَّه على طرفِ لساني.

ـ إنجين!

ـ آاه إنجين.. صحيح، ماذا كنت أقول؟ نعمْ كنت أتحدَّثُ عن القُرْبِ من القلب، إنَّه مهمٌّ جداً، وأيضاً.. أنْ تتحدَّثَ من خلْفِ أحدهم ليس بتصرُّفٍ رجوليٍّ، يولد الإنسانُ الحقُّ في الكلامِ دونَ أنْ يكون لديه علمٌ بذلك. مثلاً.. هل ترى هذين الرجلين؟

ـ نعم.

ـ برأيكَ؟ أيٌّ منهما يحكي من خلْفِ صديقِهِ ويكذبُ وينافق؟

ـ لا أعلم.

ـ خمِّن.

ـ والله لا أعلم، من أين لي أنْ أعرفَ وهذه أوَّلُ مرةٍ أراهما فيها.

ـ ستعرف.. انظر! أنا شخصٌ وازنٌ، أستطيعُ معرفةَ داخلَ شخصٍ كم غراماً يساوي، انظر إلى عينيِّ الذي على اليمين، انظر إلى وجهه.

ـ وماذا فيه؟

ـ هل يوجد فيه رضا؟

ـ ماذا تقصد؟

ـ انظر كيف ينظر بخبث، تقول الأغنية: «العينُ مرآةُ القلب»، هكذا هي. لا أحكي كثيراً ولستُ بثرثارٍ ولا أحبُّ أنْ أوجعَ رأسَ أحدٍ. عندما تتحدَّثُ كثيراً ستقول أشياءَ لا داعيَ لها، وفي كتابنا لا وجودَ لذلك، تقليمُ الحديثِ لا يجوز، هل كان اسمك ماجد؟!

ـ اااه أيُّها القصر، لا تقفْ أمامي هكذا كلوحةٍ ملونةٍ، أشجارك زنبق، كرومك المهمشة، لا تقفْ هكذا، سآتي إليك، لا أقول إنَّكَ قد بقيتَ من الماضي، ولا أقولُ عن الصنوبرِ قد أصبحتَ فنجاناً، أرمي بنفسي في هذه الأمواج وفي هذا المطر، لآتي إليك، أيُّها القصر ستصبحُ السبب في مرضي بعد ذلك، لا تقل: «لم أقلْ لك».

# إِبْرِيْقُ الـمَاءِ

ذهب لونُ الطباعةِ على القميص الأبيض، وانسكبت الألوانُ ببطءٍ على السروال، كانت عليه آثار أصابع واضحة حاولتْ تعديله.

دخل إلى محلٍّ لبيعِ الأدوات الزُّجاجية وأطباقِ البورسلان اللامعة، دخل إلى الداخل بخطواتٍ متردِّدَةٍ ثم توقَّف، كان متوتراً لدرجة أنَّه إذا سمع صوتاً عالياً من آخر السوق ربمَّا يهربُ، كان صاحب المحلِّ يحكي مع زبون:

ـ لا سلام ولا كلام ولا تليفون ولا إيميل ولا وتس ولا فيس! أين أنت يا رجل لشهور؟! في أيِّ حفرةٍ قد وقعتْ؟!

كان يعطي صاحبَ المحلِّ الحدَّ الأدنى من الأجرة، التفت نظري فجأةً على امرأة مسنَّةٍ تحاول الدخول إلى المحل، أذانه مع صاحبِ المحلِّ وعيناه تراقبه.

ـ هل هكذا كان اتفاقنا؟ حتى هذا ليس بنصفِهِ!

خَطَا نصفَ خطوةٍ. . لم يتجرأْ على التَّقدُّمِ أكثر، لم يكن يريد لفْتَ انتباهِ مَنْ حوله، سار خطوتين إلى الأمام وهمَّ بالهروب، لكن صوت صاحبِ المحلِّ وهو يرحِّبُ بالمرأة التي تدخلُ قد أوقفه.

ـ تفضَّلي يا سيدتي، عمَّاذا تبحثين؟

أصابتْه الدَّهشةُ وكأنَّهم كانوا يتحدَّثون معه.

ـ لم أجدْ طلبي في السوق لربُّما أجده عندك.

عرض عليها أباريقَ الماءِ المصفوفة على الرَّفِّ العُلويِّ، كانت ثمانيةَ أباريقَ مصفوفةٍ بالترتيب بجانب بعضها البعض.

ـ اه كم هي جميلة، مصفوفةٌ بجانب بعضها، وملونةٌ من كلِّ الألوان.

ـ فلْيَحْمِ الله دكانكَ من الحسدِ يا بنيَّ.

نظر الرجل إلى إبريقِ الماءِ البلاستيكِ على الرَّفِّ وضحك، قامت المرأةُ العجوزُ بالإشارة إلى ما بيدها وسألته كما يسأل أيُّ زبونٍ فقير:

ـ كم سعره؟

ـ ليرة ونصف.

تراجعت المرأةُ خطوةً للخلف، ورفعتْ عيناهَا عنه وأغلقتْ فمَهَا بيديها، وبدأتْ بمهاجمةِ صاحب المحلِّ:

ـ يا إلهي! وهل نشتري دكاناً؟!

ـ ما بكِ يا سيدتي؟ كلُّ ما هنالك ليرة ونصف، إنَّها ثمنُ ثلاثِ كاساتِ شايٍ لا أكثر، هل تجدينها باهظةً إلى هذا الحدِّ؟

ـ طبعاً.. كلُّ هذه النقودِ تكسر اليد، ويقول: «ليرة ونصف»، في أيِّ زمنٍ نحن! وكنا نكذِّبُهم حين يقولون «هذا آخر الزمان»!

كانت المرأة جديَّةً بدهشتها، وقف صاحب الدكان عاجزاً أمامَهَا، فكَّر ثم نظرَ إليَّ وهمس لي بشيءٍ وضحك.

ـ أنتِ كم تعطينَها سعراً؟

ـ وماذا يمكنني أنْ أقولَ بعد أنْ بدأتَ السعر كهذا المبلغ؟!

بدأت فترةُ المزايدة (السوق الشعبي) الطويلة، كان

صاحب الدُّكانِ مستمتعاً، أمَّا المرأةُ فكانت مهمومة، اختفت الأصوات، لم أعدْ أسمعُ شيئاً، اختفى الجميع.

سرحتْ وذهبتْ، يا ترى تحت أيِّ سقفٍ تعيش هذه المرأة؟ ماذا تأكل وماذا تشرب؟ رغيفُ خبزٍ واحدٍ لِكَمْ وَجبةِ طعامٍ يكفيها، ما أكبر مقدارِ نقودٍ حملته في حياتها؟

الفقر يجعلكَ تحسبُ حتى الليرةَ ونصف، عادت الأصواتُ من جديد، وعدت للإنصاتِ إلى حديثِهِمَا.

ـ زوَّجْتُ بناتي، واثنين من أولادي يدرسون في الجامعة، والحمد لله.

ـ وماذا يدرسون؟

ـ الكبير معلم، والصغير مهندس.

ـ ما شاء الله؛ لقد درَّسْتِهِمْ جيداً، كيف استطعتِ تحمُّلَ كلِّ تلك المصاريفِ مع هذا الفقر، اعذريني ولكنَّكِ مَنْ وجد إبريقَ البلاستيك غالياً...

ـ بفضلِ فاعلي الخير.

كانت تقول: «فاعلي الخير»! أين هم؟ ولماذا لا أجدهم أنا؟ لقد اجتمعوا من قونيا ومن هانيا، هل

عرفتهم؟ فلْيرضَ الله عنهم. أليس المتسوِّلون بشر؟ لو ساعدتموهم.. أشغلتموهم لديكم وجعلتموهم يكسبون النقود أو حتى درَّستموهم، فلْيدخلهم الله جنَّته بغيرِ حسابٍ ولا سؤال لأنَّهم عاجزون حقاً.

لقد شعرت بهواءٍ باردٍ بين ذراعي ويديَّ. هذا يعني أنَّ ما فعلوه لم يذهبْ سدىً، الأصواتُ التي تأتي من القلب تذهبُ حقاً إلى القلب، ويقال: إنَّ السمكَ لا يُعرَفُ بل يَعرِفُ أيضاً.

في تلك اللحظة؛ أصبح أمام عينيَّ عصا، وأحلام، وشروقُ الشمس الملتهب، ارتفع بحرُ أحلامي إلى السماء. أنزلَ إبريقَ الماءِ التي كانت قد أشارتِ المرأةُ إليه، لقد غمرتْهَا الفرحةُ وكأنَّها تأخذُ أغراضَ بيتٍ كامل، دقَّقَتْ في النَّظَرِ إليه وفي كلِّ أطرافِهِ؛ قاعدته، ذراعه، فتحته.. كانت تفحصُهُ وكأنَّك تفحصُ ثلاجةً أو فرناً، كانت عيناها تلمعُ من الفرحة، كنتُ أراقبُ الناسَ في المحلات، لم أرَ في حياتي شخصاً سعيداً لهذه الدرجةِ لشراءِ شيءٍ جديدٍ كما كانت هي.

ـ ليس مثقوباً أليس كذلك؟

ـ طبعاً لا.

قبل أنْ يغلِّفَ صاحبُ المحلِّ الإبريقَ بورقةِ الصحيفةِ وضعَ كأسي ماءٍ بجانبِهِ دون أنْ تنْتبَه المرأةُ، ثم نظرَ إليه وهمسَ بشفافيةٍ:

ـ ولتكنْ هذه منَّا.

ثم وضعَهَا داخل الكيس.

أسندتِ المرأة عصاها على الزجاجِ وفتحتْ محفظتَهَا لإخراج النقود وهي تردِّدُ:

ـ بسم الله.

يا إلهي! وكأنني قد عدَدْتُها قبل أنْ أضعَهَا، خذْ وهذه ليرة ونصف، وأعطاهَا كيسَهَا وتوَجَّهتْ نحو الباب.

أحسَّتْ بثقلِ الكيسِ، التفتتْ إلى البائع لتسألَهُ لكنَّه كان مشغولاً، قالت:

ـ فلْيحفظِ الله دكانَكَ من الحسد، خرجتْ وذهبتْ في وسط زحمةِ السوق..

# وَتَسْتَمِرُّ الرِّحْلَةُ

وتستمرُّ الرحلة.. ذلك المرض المعدي المخيفُ في كلِّ لحظةٍ يجد ضحايا جدداً، يتقدَّمُ خطوةً بخطوة.

بدأت الشمسُ بعد أنْ وصلت ذِروتَهَا تتجه باتجاهِ الغرب، يا إلهي هذه آخر فرصة! اليوم ينتهي! لا يوجد عودةٌ أو تراجع، يجبْ أنْ تعادَ هذه الخراطيمُ إلى أماكنها، صعودُ التلالِ والتَّغلُّبُ على ألفِ نوعٍ من الصعوباتِ لإحضارِ مصادرِ الحياةِ إلى المدينة، والكشفُ عن طرقِ منابعِ المياه.. حرارةُ الشمس في آب شديدةٌ خاصةً في وقتِ العصر تحرقُ أضعافاً مضاعفةً. حتَّى السَّحالي وجدتْ مكاناً في الظلِّ لتحمي نفسَهَا من هذه الحرارة، الخنافسُ المتعجرفةُ تخرج إلى الأجواءِ من الأماكنِ المظلَّلة وتُكَوِّنُ حديثاً يشغلُ الجميع.

تستمرُّ الرحلة.. طريقُ المنحدرِ النَّازلُ من التلال،

النباتاتُ المنحدرةُ (السَّامَّة) التي تسحقُّ أياديَ وأرجلَ الإنسان، القنفذُ الذي ينتظرُ من يضغطُ عليه، ليس بمنحدرٍ جبليٍّ، حتى الطريق الذي يُستعمَلُ للوصولِ إلى المدينةِ مليءٌ بالشجيراتِ الشائكةِ والأعشابِ الحادة المُلْتفَّة، هذا يعني أنَّه لنْ يأتيَ أحدٌ من هنا منذ مدةٍ طويلةٍ، من بين كلِّ ذلك يُرَى أيضاً شجيراتٌ خضراءُ مجنونةٌ حاملةٌ ثمرَهَا الأحمرَ اللامع؛ باختصار..

ـ احذروا! لا تقتربوا منهم، قال المتحدِّث من قلبِهِ، وكرَّرَ مقولَتَه مؤكِّداً:

ـ لا أقول لا تلمَسوها، ولا حتى تقتربوا منها!

إلى هذا الحدِّ كانوا نائمين؟!

كان هناك مجموعةٌ من الرجال يعملون في مجالِ البناء، كرَّسُوا حياتهم من أجلِ هذه القضية، أفنَوا أنفسَهم من أجلِ إحضارِ الحياة إلى المدينة، سوف يُحضِرونَ الماءَ عبر خراطيمَ عريضةٍ يضعونها مكانَ ممراتِ المياه التي كانتْ في حالة خراب. بفضْلِ ما أحضروه سوف يستطيعون تخليصَ زوجاتِهِم وأصدقائِهِم، معارفِهِم، أقاربِهِم،

أحبابِ أصدقائِهم، وحتى مَنْ لا يعرفون أسماءَهم؛ من المرض الذي كان في ذلك المكان، باسم رحلةِ القلوب في إحضارِ الماء إلى المدينة.

تقتربُ الشمس نحو الأفق مسرعةً.. ينفَدُ الوقت.. إذا لم ينجحوا في إحضار المياه! يا إلهي! ماذا سيحدث بالأهالي؟! سيقعون في قبضةِ ذلك المرضِ المشؤوم المخيف.. يسحقُ من الداخل.. لا يُحتَمل.

هل يمكنُ أنَّ واحداً من المجموعة قد تعثَّرتْ قدمه هناك أمْ ماذا؟ يا له من مسكين! ولكنَّ المكانَ الذي وقعَ فيه كان تماماً فوق تلك الأعشاب المجنونةِ!!

ـ انظرْ! ها قد بدأ يتصرَّفُ بشكلٍ غريب؟ هل رأيتَ ذلك؟ يا له من مسكين! بدأ أصدقاؤُهُ بإخراجِهِ من الحفرة بواسطةِ سحْبِهِ بالحبل، النظرات الجافَّةُ كانت في عينيه كانت كتلك التي في أهل المدينة.

تستمر الرحلة؛ لم يكنْ أهلُ المدينةِ يدركونَ أنَّهم يتغيرون! ذلك الرجل ذو الستين عاماً كان يتجوَّلُ في الشارع ممسكاً عصاً بيده، يلعب بقطعةٍ من القذارةِ في

وسط الطريق، يحاول إعطاءَ شكلٍ لتلك القذارة كأنَّه يقدِّم عرضاً! وكان أيضاً متفاخراً بذلك، ويقول منتشياً:

ـ سوف ننشئ معهداً لهذا العمل أيُّها القوم، يرمي المقاعدَ مغرياً مَنْ هم مثلَه بما فعلَه.

مرت سيدتان في منتصف العمر؛ واحدةٌ إلى جانبٍ من الطريق والأخرى إلى الجانب المقابل، كلٌّ واحدةٍ أخرجتْ من حقيبتها مرآةً وعدَّلتْ زينتها، لامست كلٌّ منهما شعرَهَا من الدَّاخل كأنَّها ترى هل مازال مصفَّفاً في مكانه. يمكنهما الآن المتابعة، أمسكتْ كلٌّ منهما بحبلٍ، كلُّ واحدةٍ من طرف..

ـ واحد، اثنان، ثلاثة، قالتا، ثم انطلقتْ قَهْقهاتُهُما.

انزلقتْ أقدامُهُمَا على إسفلت الرصيف، انحنى الذين وقعوا للسيدتين انحناءً باحترام، وتابعوا طريقهم من دون أنْ ينفضُوا ثيابَهُم بامتنانٍ وفخر.

اقتربت السماء كثيراً من الأفق، بقي بشرٌ واحدٌ تقريباً، يجب أنْ يصلَ الماءُ إلى المدينة قبلَ الغروب،

وإلا . . وإلا فإن هذا المرض الفتَّاك . . سوف يحاول طاقمُ الإنشاء منْعَ العائلاتِ بالتماسٍ شديد، ربما برحمة.

ـ هل أنتَ مَنْ سيصلح هذه المدينةَ الكبيرةَ يا بني، يوماً بعد يوم كانت حياتنا تصبح مشوهةً أكثر، جِدْ لنفسك عملاً مع تأمين، لنْ تشبعَ زوجتك بهذه الأعمال الخيرية.

وأيضاً الأطفال . . تستمرُّ الرحلة، بعضُ الشباب يلاحقون المشرَّدين في الشوارع ساخرينَ منهم، مدَّدَ هذا اللحمَ على جانبه على الأرض مثلَ هيكلِ روما، حاملاً بيده عنقوداً من العنب ذي ثلاثِ حبَّات، رامياً الحبَّة من بعيد إلى فمه المفتوح ثم أدخلها بسعادة قبل أنْ تستقرَّ في بطنه.

انحنت الشمس إلى الأفق أكثر، لم يتبقَّ سوى مسافةِ إصبع، اتسعت الظِّلال، ذلك الجهد! هذا العمل سيتم!

وتستمرُّ الرحلة.

النهاية

# المحتوى


تعريف بالمؤلف شمس الدين يابار ..... 5

حجرُ الصَّبر ..... 7

خذه!.. ..... 17

اللَّوْحَةُ دَاخِلُ الإِطَارِ ..... 23

كَلْبُ الحِرَاسَةِ ..... 33

أَنْتَ لَسْتَ مِنْ هُنَا ..... 41

لَقَدْ رَأَيْتُ الشَّيْطَانَ! ..... 45

الفِيلْمُ الَّذيْ في الصِّيْنِيَّةِ ..... 57

أُمِّي، نَحْنُ مَاذَا يَنْقُصُنَا؟! ..... 63

أُصُولُ مَعْزُوْفَةِ البُزُقِ ..... 77

وَهَلْ يُعَدُّ؟ ..... 85

تِلْكَ الأَيْدِي ..... 91

صَوْتُ أَجْنِحَةِ الفَرَاشَاتِ ..... 99

حُبُّ التَّعَلُّمِ ..... 107

أَيْنَ الْيَنْبُوعُ ..... 117
القَصْرُ ..... 121
إِبْرِيْقُ المَاءِ ..... 131
وَتَسْتَمِرُّ الرِّحْلَةُ ..... 137